فتح المنان بشرح وصايا لقمان

تأليف

د. معوض حماد عبد الوهاب

فتح المنان بشرح وصايا لقمان

د. معوض حماد عبد الوهاب

دار القلم

هذا الكتاب هو محاولة ومساهمة في وضع نموذج عملي واقعي أمثل للتربية الصحيحة والتنشأة السليمة لأولادنا لمن أراد أن ينجو بنفسه وبمن يعول، ولمن يريد أن يبني جيلا قادراً على صناعة مستقبل أفضل لوطنه ولأمته ويكون امتداداً لعمله بعد موته

د.معوض حماد عبد الوهاب.

فتح المنان

بشرح وصايا لقمان

دكتور

معوض حماد عبدالوهاب

دار القلم
للنشر والتوزيع ورعاية الموهوبين

رئيس مجلس الإدارة
مهاب البارودي
المدير العام
محمود الشريف
المدير التنفيذي
دعاء البحيري
لجنة المراجعة والتدقيق
فراج محمود الشريف
محمود فراج الشريف
سفيان الشريف
عمر الشريف
عمار الشريف
مدير الإنتاج
نور حسن عبد الحليم

الطبعة: الأولي
الكتاب : فتح المنان بشرح وصايا لقمان
المؤلف : معوض حماد عبد ا الوهاب
تصنيف الكتاب : ديني (سيرة الأنبياء)
تصميم الغلاف : سهيلة الشريف
تصميم وإخراج داخلي : حسن عبد الحليم
رقم الإيداع: ٢٠٢٥/٨٥٠٨
الترقيم الدولى: 978-977-989-049-4

قال الله - ﷻ -: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:٢٦٩].

وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -، قال: قال النَّبِيُّ - ﷺ -: «لاَ حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»

[صحيح البخاري].

مُقَدِّمَة

الحمد لله الكريم المنان، حمدًا لربى كثيرًا أبدًا فى السر والجهر فى الدارين مفترض، ملء السموات ملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شاء بعد الواحد الصمد، والصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة للعالمين، وقدوة للعاملين، ومحجة للسالكين، وحجة على العباد أجمعين، سيدنا ونبينا محمد النبى الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

أيها الأحبة الكرام، لا شك أن من أفضل الأعمال الصالحة التى يتقرب بها العبد إلى الله – ﷻ -، وينتفع بها فى دنياه وأخراه، وتكون أساسًا متينًا فى بناء الأمة ورفعتها، أن يخلف الإنسان وراءه ولدًا صالحًا يكون على مستوى المسئولية فى الدفاع عن دينه وعرضه ووطنه ومجتمعه، ويكون عملًا صالحًا يثقل به ميزان حسنات أبويه، ويمتد به عملهما الصالح بعد موتهما، كما قال النبي – ﷺ -: "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ" [رواه مسلم]، ولكي يصل إلى هذا فإنه يحتاج دائمًا إلى أن يتعاهد أولاده بالوعظ والنصيحة، وهذا أمر ليس باليسير على كل أحد؛ لذا أردت أن أضع بين أيديكم هذا النموذج الفريد للوعظ والنصح والتوجيه من الوالد لولده حينما نقف أمام لوحة قرآنية فريدة تمثل فى مجموعها منهجًا عظيمًا متكاملًا فى الإصلاح والتقويم والتربية نحن أحوج ما نكون إليه اليوم، وذلك حينما نتأمل تلك الآيات الكريمات التى تناولت وصايا لقمان

لابنه فى سورة (لقمان)، وأسميته [فتح المنان بشرح وصايا لقمان]، وقد حرصت على أن أعتمد على ما صح من الأحاديث والأخبار وعزوها إلى مصادرها، سائلًا الله - ﷻ - أن ينفعنى وإياكم به، وأن يرزقنى وإياكم الهداية والتوفيق والرشاد والله من وراء القصد وهو يهدى السبيل ...

الفقير إلى عفو ربه

معوض حماد عبد الوهاب

١٨/١٢/٢٠٢٣م - ٥ جماد آخر ١٤٤٥هـ

تمهيد

الأحبة الكرام

الأبناء من أعظم النعم التى امتن الله بها على عباده، قال – تعالى -: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢]، وقال – سبحانه -:﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]، وقيمة الولد الحقيقية ليست فى الكثرة، ولا فى القوة والغلبة؛ وإنما فيما اكتسبوه من إيمان وأخلاق وقيم وخصال حميدة من آبائهم، قال – تعالى -:﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، وقال – سبحانه -:﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلاَّ مَا سَعى﴾ [النجم: ٣٩]، والولد من سعي أبيه؛ لأجل هذا نبهنا الله – عز وجل – على قيمة وقدر المسئولية الحقيقية للآباء تجاه أبنائهم، فقال – تعالى -:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقال رسول الله – ﷺ -:"كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ،

وَالمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ" [متفق عليه]، وقال أيضًا:"إِنَّ اللَّهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ، أَحَفَظَ أَمْ ضَيَّعَ، حَتَّى يَسْأَلَ الرَّجُلَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ" [صحيح ابن حبان]، وقال: "خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي ..." الحديث [الترمذي وابن ماجة]، لقد أخطأ كثير من الآباء والأمهات حينما ظنوا أن مسئوليتهم تجاه أبنائهم هي الطعام والشراب والملبس والمسكن وغيرها من ملذات الحياة، فنشأت فى مجتمعاتنا أجيال لا تعرف دينًا ولا قيمًا ولا أخلاقًا، ولا يكاد يمر علينا يوم حتى تطالعنا الأخبار عن حوادث القتل وانتهاك الحرمات بين الشباب، فضلًا عما ابتلي به كثير من الشباب من مخدرات ومسكرات ومجون، وكل هذا بسبب التنشأة الخاطئة التى نشأ عليها كثير من الشباب، لقد غرسنا فيهم الأنانية، والسلبية، والأثرة، وحب الذات، والتباهى على الخلق، ولو أننا ربيناهم على الإيمان والأخلاق الكريمة لتعلقت قلوبهم بالله، وعملوا على إرضاء ربهم، فكانوا قرة عين لوالديهم، وسندًا وقوةً لأمتهم ووطنهم ومجتمعهم، ثم كانوا ثقلًا فى موازين حسنات آبائهم وأمهاتهم، وامتدادًا لعملهم الصالح بعد موتهم، كما أخبرنا النبي – ﷺ -: " ... أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"، ولقد تأكدت عناية الشريعة الإسلامية بتربية الأبناء تربية سليمة، وإشعارهم بمسئوليتهم تجاه دينهم ومجتمعهم ووطنهم بما يؤسس لبناء أسرة قوية سوية؛ من خلال غرس القيم الدينية والمجتمعية، والعادات والتقاليد النافعة فى نفوس الأبناء، وجعلهم أمانة فى أعناق الوالدين.

الأحبة الكرام

إننا بحاجة إلى أن نقف طويلًا مع هذه القضية، فولدك إما لك وإما عليك، إما أن يكون عملًا صالحًا فى صحيفة حسناتك وإما أن يكون غير صالح فى صحيفة السيئات؛ إذا لم تقم بمسئوليتك، وتبذل وسعك فى تقويمه ونصحه وإرشاده وإصلاحه، يقول النبي – ﷺ -: " مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ" [متفق عليه، وعند البخارى:" مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ رَعِيَّةً، فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصِيحَةٍ، إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ"]، وقال – ﷺ -: "لَا يَسْتَرْعِي اللهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عَبْدًا رَعِيَّةً، قَلَّتْ أَوْ كَثُرَتْ، إِلَّا سَأَلَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَقَامَ فِيهِمْ أَمْرَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمْ أَضَاعَهُ؟ حَتَّى يَسْأَلَهُ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ خَاصَّةً" [مسند أحمد]، فإذا أدركنا هذا فتعالوا بنا إلى كتاب الله – عز وجل – لنتعلم كيف نربى أولادنا، وكيف ننشأهم تنشئة صحيحة من خلال آيات القرآن الكريم التى يخبرنا الله – تعالى – فيها عن موعظة لقمان لابنه ووصاياه له.

مع سورة لقمان

سورة لقمان من السور المكية يخبرنا الله – تعالى – فيها عن أب استطاع بما آتاه الله – عز وجل – من الحكمة والعلم أن يأخذ بيد ولده إلى سبيل النجاة، إنه العبد الصالح لقمان – عليه السلام –، وقد سمى الله – تعالى – السورة باسمه للدلالة على عظم شأنه وقدره عند ربه، وعلى أهمية ما أعطيه هذا العبد الصالح من نعمة الله وهي الحكمة، وقد افتتح الله السورة بما يتناسب مع عطاء الله للقمان، فقال – سبحانه وتعالى -:﴿الم * تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ١، ٢]، ثم ذكر الله – تعالى – صنفين من الناس، أولهما: أهل الإيمان والإحسان الذين لزموا طاعة الله وعبادته من صلاة وزكاة وغيرهما، وثانيهما: صنف مستهتر سفيه ضال مضل مستكبر، لا قيمة له ولا وزن، وختم الله الكلام بقوله: ﴿... وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [لقمان:٩]، ثم ذكر الله – عز وجل – لقمان وما منَّ به عليه من نعمة الحكمة، فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ ...﴾ [لقمان: ١٢]، فهو إذًا كتاب حكيم نزل من الله العزيز الحكيم ليخبرنا عن لقمان الحكيم، فما أجمل هذا الترابط والتناسب، ولما لا ؟، إنه كلام الله وكفى.

ذكر الله – تعالى – فى هذه السورة قصة لقمان – عليه السلام –، ومنهجه فى تربية وتقويم ولده لتبقى ماثلة أمام العين والقلب لمن أراد أن ينجو بنفسه وبمن يعول، من خلال تطبيق ما جاء فى هذه الوصايا الجامعة، وقد افتتح الله – عز وجل – هذه الوصايا بما يدل على أهميتها

وقيمتها، فقال – تعالى -:﴿وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ ...﴾ [لقمان: ١٢]، فهي إذًا وصايا صادرة من رجل حكيم ذى حكمة بالغة، وعقل بالغ راجح، وقد اختلف أهل العلم فى لقمان، هل كان نبيًا أم كان رجلًا صالحًا من أولياء الله وصالح عباده ؟، والذى عليه جمهور العلماء أن لقمان – عليه السلام – لم يكن نبيًا إنما كان عبدًا صالحًا آتاه الله الحكمة، قال الحافظ البغوي فى تفسيره: (وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ كَانَ حَكِيمًا وَلَمْ يَكُنْ نَبِيًّا إِلَّا عِكْرِمَةَ فَإِنَّهُ قَالَ كَانَ لُقْمَانُ نَبِيًّا وَتَفَرَّدَ بِهَذَا الْقَوْلِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: خُيِّرَ لُقْمَانُ بَيْنَ النُّبُوَّةِ وَالْحِكْمَةِ فَاخْتَارَ الْحِكْمَةَ)، قلت ومما يدل على ذلك ما رواه الإمام أحمد فى مسنده، عن ابن عمر، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: "إِنَّ لُقْمَانَ الْحَكِيمَ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - إِذَا اسْتُوْدِعَ شَيْئًا حَفِظَهُ"، وما رواه البزار فى مسنده، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ...﴾ [الأنعام: ٨٢]، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ، وَقَالُوا: أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟، قَالَ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ الَّذِينَ تَعْنُونَ، أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: "يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وروى الطبراني فى [المعجم الكبير]، عن ابن عباس – رضي الله عنهما -، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: "اتَّخِذُوا السُّودَانَ فَإِنَّ ثَلَاثَةً مِنْهُمْ مِنْ ساداتِ أَهْلِ الْجَنَّةِ لُقْمَانُ الْحَكِيمُ وَالنَّجَاشِيُّ وَبِلَالٌ الْمُؤَذِّنُ"، قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ: (أَرَادَ الْحَبَشَ)، وروى الحاكم فى [المستدرك]، عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: "خَيْرُ السُّودَانِ ثَلَاثَةٌ: لُقْمَانُ وَبِلَالٌ وَمِهْجَعٌ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -"، وقيل: أنه

كان قاضيًا فى زمان داود – عليه السلام -، وقيل كان راعيًا للأغنام، وقيل غير ذلك مما ذكره الحافظ ابن كثير فى كتابه [البداية والنهاية]، والذى لا خلاف عليه أن لقمان كان حكيمًا أعطاه الله نعمة الحكمة، وقد ذكر الحافظ ابن كثير – رحمه الله – فى [البداية والنهاية]، وابن وهب – رحمه الله - فى [الجامع]، أن أحد الناس سأله: ما الذى صيرك إلى ما نرى ؟، فقال:(إن الذى صيرنى إلى ما ترى إنما هو غض بصرى، وكف لسانى، وعفة طعمتى، وحفظى فرجى، وقولى بصدق، ووفائى بعهدى، وتكرمى ضيفى، وحفظى جارى، وتركى ما لا يعنينى، فذلك الذى صيرنى إلى ما ترى)، وروى الحافظ ابن كثير أيضًا، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ قَالَ يَوْمًا وَذَكَرَ لُقْمَانَ الْحَكِيمَ فَقَالَ: مَا أُوتِيَ عَنْ أَهْلٍ، وَلَا مَالٍ، وَلَا حَسَبٍ، ولا خصال ولكنه كان رجلاً ضمضامة، سِكِّيتًا طَوِيلَ التَّفَكُّرِ، عَمِيقَ النَّظَرِ، لَمْ يَنَمْ نَهَارًا قَطُّ، وَلَمْ يَرَهُ أَحَدٌ يَبْزُقُ، وَلَا يتنحنح، وَلَا يَبُولُ، وَلَا يَتَغَوَّطُ، وَلَا يَغْتَسِلُ، وَلَا يَعْبَثُ، وَلَا يَضْحَكُ، وَكَانَ لَا يُعِيدُ مَنْطِقًا نَطَقَهُ إِلَّا أَنْ يَقُولَ حِكْمَةً يَسْتَعِيدُهَا إِيَّاهُ أَحَدٌ، وَكَانَ قَدْ تزوَّج وَوُلِدَ لَهُ أَوْلَادٌ فَمَاتُوا فَلَمْ يَبْكِ عَلَيْهِمْ وَكَانَ يَغْشَى السُّلْطَانَ وَيَأْتِي الْحُكَّامَ لِيَنْظُرَ وَيَتَفَكَّرَ وَيَعْتَبِرَ فَبِذَلِكَ أُوتِيَ مَا أُوتِيَ".

بعض وصايا لقمان وحكمه

ذكر معمر بن راشد – رحمه الله - فى جامعه عن الحسن:" أَنَّ لُقْمَانَ، قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، لَا تَأْكُلْ شِبَعًا فَوْقَ شِبَعٍ، فَإِنَّكَ إِنْ تَنْبِذْهُ إِلَى الْكَلْبِ خَيْرٌ لَكَ، وَيَا بُنَيَّ لَا تَكُونَنَّ أَعْجَزَ مِنْ هَذَا الدِّيكِ الَّذِي يُصَوِّتُ بِالْأَسْحَارِ وَأَنْتَ نَائِمٌ عَلَى فِرَاشِكَ"، وعَنْ أَبِي عُثْمَانَ، عَنْ شَيْخٍ، مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ:"أَنَّ

لُقْمَانَ قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، لَا تَرْغَبْ فِي وُدِّ الْجَاهِلِ، فَيَرَى أَنَّكَ تَرْضَى عَمَلَهُ، وَلَا تَتَهَاوَنْ بِمَقْتِ الْحَكِيمِ فَيَزْهَدُ فِيكَ"، وروى مالك – رحمه الله – فى [الموطأ]، أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ لُقْمَانَ الْحَكِيمَ أَوْصَى ابْنَهُ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ جَالِسِ الْعُلَمَاءَ، وَزَاحِمْهُمْ بِرُكْبَتَيْكَ. فَإِنَّ اللهَ يُحْيِي الْقُلُوبَ بِنُورِ الْحِكْمَةِ. كَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ الْمَيْتَةَ بِوَابِلِ السَّمَاءِ."، وروى ابن المبارك – رحمه الله – فى [الزهد] عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ قَالَ: " قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، اتَّقِ اللَّهَ، وَلَا تُرِ النَّاسَ أَنَّكَ تَخْشَاهُ لِيُكْرِمُوكَ، وَقَلْبُكَ فَاجِرٌ"، وعن ابن أَبِي مُلَيْكَةَ، وَغَيْرُهُ:"أَنَّ لُقْمَانَ كَانَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ أَصْحَابِي الْغَافِلِينَ، الَّذِينَ إِذَا ذَكَرْتُكَ لَمْ يُعِينُونِي، وَإِذَا نسِيتُكَ لَمْ يُذَكِّرُونِي، وَإِذَا أَمَرْتُ لَمْ يُطِيعُونِي، وَإِنْ صَمَتُّ أَحْزَنُونِي"، وعن سُفْيَان:"قَالَ لُقْمَانُ: يَا بُنَيَّ، إِنَّ الدُّنْيَا بَحْرٌ عَمِيقٌ، قَدْ غَرِقَ فِيهَا نَاسٌ كَثِيرٌ، فَلْتَكُنْ سَفِينَتُكَ فِيهَا تَقْوَى اللَّهِ، وَحَشْوُهَا إِيمَانًا بِاللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَشِرَاعُهَا التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ، لَعَلَّكَ نَاجٍ، وَلَا أَرَاكَ نَاجِيًا"، وروى ابن أبي شيبة فى مصنفه:"أَنَّ لُقْمَانَ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا نَجَّارًا , وَأَنَّ سَيِّدَهُ قَالَ لَهُ: اذْبَحْ لِي شَاةً , قَالَ: فَذَبَحَ لَهُ شَاةً فَقَالَ: ائْتِنِي بِأَطْيَبِهَا مُضْغَتَيْنِ , فَأَتَاهُ بِاللِّسَانِ وَالْقَلْبِ , قَالَ: فَقَالَ: مَا كَانَ فِيهَا شَيْءٌ أَطْيَبَ مِنْ هَذَيْنِ؟ قَالَ: لَا , فَسَكَتَ عَنْهُ مَا سَكَتَ , ثُمَّ قَالَ: اذْبَحْ لِي شَاةً , فَذَبَحَ لَهُ شَاةً قَالَ: أَلْقِ أَخْبَثَهَا مُضْغَتَيْنِ , فَأَلْقَى اللِّسَانَ وَالْقَلْبَ , فَقَالَ لَهُ: قُلْتُ لَكَ ائْتِنِي بِأَطْيَبِهَا , فَأَتَيْتَنِي بِاللِّسَانِ وَالْقَلْبِ , ثُمَّ قُلْتُ لَكَ: أَلْقِ أَخْبَثَهَا مُضْغَتَيْنِ , فَأَلْقَيْتُ اللِّسَانَ وَالْقَلْبَ , قَالَ: لَيْسَ شَيْءٌ أَطْيَبَ مِنْهُمَا إِذَا طَابَا وَلَا أَخْبَثَ مِنْهُمَا إِذَا خَبُثَا"، وروى الدارمي فى سننه، عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ، قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ

لُقْمَانَ الْحَكِيمَ كَانَ يَقُولُ لِابْنِهِ:"يَا بُنَيَّ، لَا تَعَلَّمِ الْعِلْمَ لِتُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِتُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ تُرَائِيَ بِهِ فِي الْمَجَالِسِ، وَلَا تَتْرُكِ الْعِلْمَ زُهْدًا فِيهِ، وَرَغْبَةً فِي الْجَهَالَةِ. يَا بُنَيَّ اخْتَرِ الْمَجَالِسَ عَلَى عَيْنِكَ، وَإِذَا رَأَيْتَ قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ، فَاجْلِسْ مَعَهُمْ، فَإِنَّكَ إِنْ تَكُنْ عَالِمًا يَنْفَعْكَ عِلْمُكَ، وَإِنْ تَكُنْ جَاهِلًا يُعَلِّمُوكَ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِمْ بِرَحْمَتِهِ، فَيُصِيبَكَ بِهَا مَعَهُمْ، وَإِذَا رَأَيْتَ قَوْمًا، لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ، فَلَا تَجْلِسْ مَعَهُمْ، فَإِنَّكَ إِنْ تَكُنْ عَالِمًا، لَا يَنْفَعْكَ عِلْمُكَ، وَإِنْ تَكُنْ جَاهِلًا، زَادُوكَ غَيًّا، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِمْ بِعَذَابٍ فَيُصِيبَكَ مَعَهُمْ"، وروى الحاكم فى [المستدرك]، عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، عِنْدَ قَوْلِهِ - عَزَّ وَجَلَّ -:﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ [سبأ: ١١]، قَالَ أَنَسٌ:"إِنَّ لُقْمَانَ كَانَ عِنْدَ دَاوُدَ وَهُوَ يَسْرُدُ الدِّرْعَ فَجَعَلَ يَفْتِلُهُ هَكَذَا بِيَدِهِ فَجَعَلَ لُقْمَانُ يَتَعَجَّبُ وَيُرِيدُ أَنْ يَسْأَلَهُ وَيَمْنَعُهُ حِكْمَتُهُ أَنْ يَسْأَلَهُ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا صَبَّهَا عَلَى نَفْسِهِ فَقَالَ: نِعْمَ دِرْعُ الْحَرْبِ هَذِهِ، فَقَالَ لُقْمَانُ: الصَّمْتُ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ كُنْتُ أَرَدْتُ أَنْ أَسْأَلَكَ فَسَكَتُّ حَتَّى كَفَيْتَنِي"، وروى أبو نعيم فى [الحلية]، عَنْ كَعْبٍ، أَنَّ لُقْمَانَ، قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ كُنْ أَخْرَسَ عَاقِلًا، وَلَا تَكُنْ نَطُوقًا جَاهِلًا، وَلْأَنْ يَسِيلَ لُعَابُكَ عَلَى صَدْرِكَ وَأَنْتَ كَافٌّ اللِّسَانَ عَمَّا لَا يَعْنِيكَ أَجْمَلُ بِكَ وَأَحْسَنُ مِنْ أَنْ تَجْلِسَ إِلَى قَوْمٍ فَتَنْطِقَ بِمَا لَا يَعْنِيكَ، وَلِكُلِّ عَمَلٍ دَلِيلٌ وَدَلِيلُ الْعَقْلِ التَّفَكُّرُ، وَدَلِيلُ التَّفَكُّرِ الصَّمْتُ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ مَطِيَّةٌ وَمَطِيَّةُ الْعَقْلِ التَّوَاضُعُ وَكَفَى بِكَ جَهْلًا أَنْ تَنْهَى عَمَّا تَرْكَبَ، وَكَفَى بِكَ عَقْلًا أَنْ يَسْلَمَ النَّاسُ مِنْ شَرِّكَ"، وروى البيهقي فى [شعب الإيمان]، عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ، قَالَ: قَالَ

لُقْمَانُ لِابْنِهِ:"يَا بُنَيَّ ارْجُ اللهَ رَجَاءً لَا يُجَرِّئُكَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، وَخَفِ اللهَ خَوْفًا لَا يُؤَيِّسُكَ مِنْ رَحْمَتِهِ"، وروى ابن كثير في [البداية والنهاية]، عَنْ أَبِي قِلَابَةَ قَالَ: قِيلَ لِلُقْمَانَ أَيُّ النَّاسِ أَصْبَرُ؟، قَالَ: صَبْرٌ لَا يَتْبَعُهُ أَذًى، قِيلَ فَأَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟، قَالَ مَنِ ازْدَادَ مِنْ عِلْمِ النَّاسِ إِلَى عِلْمِهِ، قِيلَ فَأَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ، قَالَ: الْغَنِيُّ، قِيلَ الْغَنِيُّ مِنَ الْمَالِ؟، قَالَ: لَا وَلَكِنَّ الْغَنِيَّ الَّذِي إِذَا الْتُمِسَ عِنْدَهُ خَيْرٌ وُجِدَ وَإِلَّا أَغْنَى نَفْسَهُ عَنِ النَّاسِ"، هذه بعض الوصايا والحكم النافعة التى نقلها أهل العلم عن لقمان – عليه السلام -.

نعمة الحكمة

الحكمة هي من أعظم نعم الله، قال الله – تعالى -:"يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ" [البقرة:٢٦٩]، وقد امتن الله على أنبياءه بهذه النعمة العظيمة، قال – تعالى – عن خليله إبراهيم – عليه السلام -:"فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا" [النساء:٥٤]، وقال عن نبيه داود:"... وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ..." [البقرة:٢٥١]، وقال – سبحانه -: ﴿وَشَدَدْنا مُلْكَهُ وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطابِ﴾ [ص:٢٠]، وقال عن نبيه يوسف - عليه السلام -: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٢٢]، وقال عن نبيه عيسى – عليه السلام -: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨]، وقال لنبيه محمد – ﷺ -: ﴿ ... وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، وامتن الله بها على المؤمنين، فقال – سبحانه –:﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]، وقال – عز وجل -: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٣١]، وقال – تعالى -:﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا

مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وروى البخاري في صحيحه من حديث عبد اللَّه بن مسعود – رضي الله عنه -، قال: قال النَّبِيُّ - ﷺ -: "لاَ حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا"، فهذا يدل على قيمة وقدر هذه النعمة العظيمة.

من أقوال السلف في الحكمة

قال ابنُ عبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عنهما -:(كونوا ربَّانيِّين حُكَماءَ فُقَهاءَ).

وقال سليمان بن عبد الملك:(يا أبا حازمٍ، مَن أعقَلُ النَّاسِ؟، فقال أبو حازمٍ: من تعَلَّمَ الحِكمةَ وعلَّمها النَّاسَ).

وعن ابنِ عُيَينةَ قال:(كان يقالُ:إنَّ أفضَلَ ما أعطيَ العبدُ في الدُّنيا الحِكمةُ، وفي الآخِرةِ الرَّحمةُ).

وقال عبدُ الرَّحمنِ الحبليُّ:(ليس هَديَّةٌ أفضَلَ من كَلِمةِ حِكمةٍ تُهديها لأخيك).

وقال الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ: (العُلَماءُ كثيرٌ، والحُكَماءُ قليلٌ، وإنَّما يرادُ من العِلمِ الحِكمةُ، فمن أوتيَ الحِكمةَ فقد أوتي خيرًا كثيرًا).

وقال ابنُ القَيِّمِ عن الحِكمةِ: (كلُّ نظامِ الوُجودِ مرتَبِطٌ بهذه الصِّفةِ، وكُلُّ خَلَلٍ في الوجودِ وفي العبدِ فسَبَبُه الإخلالُ بها؛ فأكمَلُ النَّاسِ أوفَرُهم منها نصيبًا، وأنقَصُهم وأبعَدُهم عن الكمالِ أقلُّهم منها ميراثًا).

مفهوم الحكمة

والحكمة في الأصل مأخوذة من الحَكَمَةُ: وهي ما أحاط بحَنَكَيَ الفرس، سُمِّيت بذلك؛ لأنَّها تمنعه من الجري الشَّديد، وتُذلِّل الدَّابَّة لراكبها، حتى تمنعها من الجِماح، ومنه اشتقاق الحِكْمَة؛ لأنَّها تمنع صاحبها من أخلاق الأراذل، وأَحْكَمَ الأَمْرَ: أي أَتْقَنَه فاستَحْكَم، ومنعه عن الفساد، أو منعه من الخروج عمَّا يريد.

وقد ذكر العلماء تعريفات كثيرة للحكمة، منها:

قال أبو إسماعيل الهروي: (الحِكْمَة اسم لإحكام وضع الشيء في موضعه)، وقال ابن القيِّم: (الحِكْمَة: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي)، وقال النَّووي: (الحِكْمَة، عبارة عن العلم المتَّصف بالأحكام، المشتمل على المعرفة بالله - تبارك وتعالى -، المصحوب بنفاذ البصيرة، وتهذيب النَّفس، وتحقيق الحقِّ، والعمل به، والصدِّ عن اتِّباع الهوى والباطل، والحَكِيم من له ذلك)، وقيل: الحكمة ضرب كُلُّ ما منع من الجهلِ، وزَجَر عن القبيحِ، وقيل: الحكمة خروج فضيلةٌ تمنعُ صاحِبَها من الجَهلِ في القولِ والعَمَلِ، وتصُدُّه عن سوءِ التَّصرُّفِ والمعاملةِ، وتحذِّرُه رذيلةَ الاندفاعِ والعَجَلةِ، وتُعلِّمُه أن يَضَعَ كُلَّ شيءٍ في موضِعِه، وقيل الحِكمةُ: ضربٌ من العِلمِ يمنَعُ من ركوبِ الباطِلِ، وقيل: الحِكمةُ: خروجُ نفسِ الإنسانِ إلى كمالِها الممكِنِ لها في حدَّيِ العِلمِ والعَمَلِ، وقيل:هي معرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والعمل، وهذا لا

يكون إلا بفهم القرآن، والفقه في شرائع الإسلام، وحقائق الإيمان، وهذا التعريف للإمام مجاهد والإمام مالك، وقيل: هي العلم مع العمل، وقيل: هي تعلم الحلال والحرام، وقيل: كل كلام وافق الحق فهو حكمة, وقال أبو بكر بن دريد:(كلُّ كلمة وعظتك وزجرتك، أو دعتك إلى مكرمة، أو نهتك عن قبيح، فهي حِكْمَة).

ويمكن أن نقول استخلاصًا من التعريفات السابقة أنّ الحكمة: هي ملكةٌ فطريةٌ، أو مكتسبةٌ يمكن بها وضع الأمور في مواضعها أقوالًا وأفعالًا وأحكامًا وفق روية ودراية. [موسوعة التفسير الموضوعي]، وهي كما قال ابن القيم: (وَالْحِكْمَةُ حِكْمَتَانِ: عِلْمِيَّةٌ، وَعَمَلِيَّةٌ. فَالْعِلْمِيَّةُ: الِاطِّلَاعُ عَلَى بَوَاطِنِ الْأَشْيَاءِ، وَمَعْرِفَةُ ارْتِبَاطِ الْأَسْبَابِ بِمُسَبِّبَاتِهَا، خَلْقًا وَأَمْرًا، قَدَرًا وَشَرْعًا، وَالْعَمَلِيَّةُ كَمَا قَالَ صَاحِبُ [الْمَنَازِلِ] وَهِيَ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي مَوْضِعِهِ) [مدراج السالكين].

الحكمة في القرآن الكريم والسنة المطهرة

جاءت الحكمة فى القرآن الكريم بعدة معان، منها:

- السنة وبيان الشرائع، كما فى قوله – تعالى -: ﴿ ... وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]، قال الإمام القرطبي فى تفسيره:(وَقَالَ قَتَادَةُ:"الْحِكْمَةُ" السُّنَّةُ وَبَيَانُ الشَّرَائِعِ)، وقال الحافظ ابن كثير فى التفسير:(وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنَ {وَالْحِكْمَةَ} يَعْنِي: السُّنَّةَ، قَالَهُ

الحسن، وَقَتَادَةُ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ، وَأَبُو مَالِكٍ وَغَيْرُهُمْ).

- النبوة، كما فى قوله – تعالى -: ﴿ ... وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ...﴾ [البقرة:٢٥١]، قال الحافظ البغوي فى تفسيره:(... قَوْلُهُ – تَعَالَى -: "وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ"، يعني: النبوّة)، وقال الحافظ ابن كثير فى تفسيره:(ثُمَّ آلَ الْمُلْكُ إِلَى دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَعَ مَا مَنَحَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ النُّبُوَّةِ الْعَظِيمَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ – تَعَالَى -:"وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ" الَّذِي كَانَ بِيَدِ طَالُوتَ، "وَالْحِكْمَةَ" أَيِ: النُّبُوَّةُ بَعْدَ شَمْوِيلَ).
- الفقه، كما فى قوله – تعالى -:﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ...﴾، قال الحافظ ابن كثير:(قَالَ مَالِكٌ: وَإِنَّهُ لَيَقَعُ فِي قَلْبِي أَنَّ الْحِكْمَةَ هُوَ الْفِقْهُ فِي دِينِ اللَّهِ، وأَمْرٌ يُدْخِلُهُ اللَّهُ فِي الْقُلُوبِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ، وَمِمَّا يُبَيِّنُ ذَلِكَ، أَنَّكَ تَجِدُ الرَّجُلَ عَاقِلًا فِي أَمْرِ الدُّنْيَا ذَا نَظَرٍ فِيهَا، وَتَجِدُ آخَرَ ضَعِيفًا فِي أَمْرِ دُنْيَاهُ، عَالِمًا بِأَمْرِ دِينِهِ، بَصِيرًا بِهِ، يُؤْتِيهِ اللَّهُ إِيَّاهُ وَيَحْرِمُهُ هَذَا، فَالْحِكْمَةُ: الْفِقْهُ فِي دِينِ اللَّهِ)، ونقل ذلك أيضًا عن قتادة ومجاهد – رحمهما الله -.
- الفهم، كما فى قوله – تعالى -:﴿"وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ ...﴾ [لقمان: ١٢]، قال الحافظ ابن كثير:(وَقَوْلُهُ:"وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ"، أَيِ: الْفَهْمَ وَالْعِلْمَ وَالتَّعْبِيرَ).
- العظة، كما فى قوله – تعالى -:"حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ" [القمر: ٥]، قال ا.د/ محمد سيد طنطاوى فى تفسيره [الوسيط]:(والحكمة: العلم النافع الذي يترتب عليه تحرى الصواب في القول والفعل،

أى: هذا الذي جاءهم من أنباء الماضين، ومن أخبار السابقين فيه ما فيه عن الحكم البليغة، والعظات الواضحة التي لا خلل فيها ولا اضطراب).

والحكمة لا تختص بالنبوة، بل هي أعم منها، وأعلاها النبوة والرسالة، وهي أيضًا أعم من العلم، فقد يكون الإنسان عالمًا ولا يكون حكيمًا، وهذا المعنى نجده فى حديث النبي - ﷺ - الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه، عن ابن عبّاس، قَالَ: رَفَعَتِ امْرَأَةٌ صَبِيًّا لَهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلِهَذَا حَجٌّ؟، قَالَ:"نَعَمْ، وَلَكِ أَجْرٌ"، فتأمل حينما قال لها:"نعَمْ"، هذا جواب كاف عن السؤال، لكنه - ﷺ - أعطاها زيادة فى الجواب هي فى حاجة إليها، فقال:"وَلَكِ أَجْرٌ"، ومثله ما رواه أبو داود وغيره من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -، قال: سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ - ﷺ -، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَرْكَبُ الْبَحْرَ، وَنَحْمِلُ مَعَنَا الْقَلِيلَ مِنَ الْمَاءِ، فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا، أَفَنَتَوَضَّأُ بِمَاءِ الْبَحْرِ؟، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:"هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ"، فهو يسأل عن طهورية ماء البحار، فكان قوله:"هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ .."، كافيًا فى الجواب، لكنه - ﷺ - أعطاه زيادة فى الجواب هو فى حاجة إليها، فقال:"... الْحِلُّ مَيْتَتُهُ"، فهذا يسمى جواب الحكيم، وهذا يبين لنا الفرق بين العالم والعالم الحكيم، والحكمة تشمل كل المعانى التى ذكرناه.

وكفى بالحكمة شرفًا ومكانةً وقدرًا أن الله - تعالى - وصف نفسه

بالحكمة، وسمى نفسه الحكيم فى آيات عديدة فى أكثر من مائة موضع فى كتاب الله – تعالى -، ومن أسمائه – تعالى – (الحكيم)، وقد جاء فى القرآن مقترنًا بغيره من الأسماء الحسنى كالعليم والخبير والعزيز والحميد والعلي والواسع والتواب، وقد جاء فى غير ما حديث عن رسول الله – ﷺ – ما يدل على أهمية الحكمة ومكانتها وقدرها، منها:

- حديث عبد اللَّه بن مسعود – رضي الله عنه -، قال: قال النَّبِيُّ - ﷺ -:"لاَ حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا" [البخاري].
- حديث عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما -، قال:"ضَمَّنِي النَّبِيُّ - ﷺ - إِلَى صَدْرِهِ، وَقَالَ:"اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الحِكْمَةَ" [البخاري]، وفى رواية، قال:"دَعَا لِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يُؤْتِيَنِي اللَّهُ الحِكْمَةَ مَرَّتَيْنِ" [الترمذي].
- حديث أبي هريرة، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:"الكَلِمَةُ الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ، فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا" [الترمذي، وابن ماجة].
- حديث زيد بن أسلم، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:"الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، حَيْثُمَا وَجَدَ الْمُؤْمِنُ ضَالَّتَهُ فَلْيَجْمَعْهَا إِلَيْهِ" [مسند الشهاب].

درجات الحكمة ثلاث:

الأولى: أن تعطي كل شيء حقه، ولا تعديه حده، ولا تعجله عن وقته، ولا تؤخره عنه، قال ابن القيم – رحمه الله -:(لَمَّا كَانَتِ الْأَشْيَاءُ لَهَا

مَرَاتِبُ وَحُقُوقٌ، تَقْتَضِيهَا شَرْعًا وَقَدَرًا، وَلَهَا حُدُودٌ وَنِهَايَاتٌ تَصِلُ إِلَيْهَا وَلَا تَتَعَدَّاهَا، وَلَهَا أَوْقَاتٌ لَا تَتَقَدَّمُ عَنْهَا وَلَا تَتَأَخَّرُ كَانَتِ الْحِكْمَةُ مُرَاعَاةَ هَذِهِ الْجِهَاتِ الثَّلَاثِ؛ بِأَنْ تُعْطَى كُلُّ مَرْتَبَةٍ حَقَّهَا الَّذِي أَحَقَّهُ اللَّهُ بِشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ، وَلَا تَتَعَدَّى بِهَا حَدَّهَا فَتَكُونَ مُتَعَدِّيًا مُخَالِفًا لِلْحِكْمَةِ، وَلَا تَطْلُبُ تَعْجِيلَهَا عَنْ وَقْتِهَا فَتُخَالِفَ الْحِكْمَةَ، وَلَا تُؤَخِّرُهَا عَنْهُ فَتُفَوِّتَهَا).

الثانية: أن تشهد نظر الله في وعده، وتعرف عدله في حكمه، وتلحظ بره في منعه، قال ابن القيم – رحمه الله -:(أَيْ تَعْرِفُ الْحِكْمَةَ فِي الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَتَشْهَدُ حُكْمَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، فَتَشْهَدُ عَدْلَهُ فِي وَعِيدِهِ، وَإِحْسَانَهُ فِي وَعْدِهِ، وَكُلٌّ قَائِمٌ بِحِكْمَتِهِ، وَكَذَلِكَ تَعْرِفُ عَدْلَهُ فِي أَحْكَامِهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالْكَوْنِيَّةِ الْجَارِيَةِ عَلَى الْخَلَائِقِ، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ فِيهَا، وَلَا حَيْفَ وَلَا جَوْرَ، وَإِنْ أَجْرَاهَا عَلَى أَيْدِي الظَّلَمَةِ، فَهُوَ أَعْدَلُ الْعَادِلِينَ، وَمَنْ جَرَتْ عَلَى يَدَيْهِ هُوَ الظَّالِمُ، وَكَذَلِكَ تَعْرِفُ بِرَّهُ فِي مَنْعِهِ، فَإِنَّهُ – سُبْحَانَهُ - هُوَ الْجَوَادُ الَّذِي لَا يُنْقِصُ خَزَائِنَهُ الْإِنْفَاقُ، وَلَا يَغِيضُ مَا فِي يَمِينِهِ سَعَةُ عَطَائِهِ. فَمَا مَنَعَ مَنْ مَنَعَهُ فَضْلَهُ إِلَّا لِحِكْمَةٍ كَامِلَةٍ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُ الْجَوَادُ الْحَكِيمُ، وَحِكْمَتُهُ لَا تُنَاقِضُ جُودَهُ، فَهُوَ – سُبْحَانَهُ - لَا يَضَعُ بِرَّهُ وَفَضْلَهُ إِلَّا فِي مَوْضِعِهِ وَوَقْتِهِ بِقَدْرِ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ، وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَفَسَدُوا وَهَلَكُوا، وَلَوْ عَلِمَ فِي الْكُفَّارِ خَيْرًا وَقَبُولًا لِنِعْمَةِ الْإِيمَانِ، وَشُكْرًا لَهُ عَلَيْهَا، وَمَحَبَّةً لَهُ وَاعْتِرَافًا بِهَا، لَهَدَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ، وَلِهَذَا لَمَّا قَالُوا لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣]

أَجَابَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]).

الثالثة: أن تبلغ في استدلالك البصيرة، وفي إرشادك الحقيقة، وفي إشاراتك الغاية، قال ابن القيم:(يُرِيدُ أَنْ تَصِلَ بِاسْتِدْلَالِكَ إِلَى أَعْلَى دَرَجَاتِ الْعِلْمِ، وَهِيَ الْبَصِيرَةُ الَّتِي تَكُونُ نِسْبَةُ الْعُلُومِ فِيهَا إِلَى الْقَلْبِ كَنِسْبَةِ الْمَرْئِيِّ إِلَى الْبَصَرِ، وَهَذِهِ هِيَ الْخَصِّيصَةُ الَّتِي اخْتُصَّ بِهَا الصَّحَابَةُ عَنْ سَائِرِ الْأُمَّةِ، وَهِيَ أَعْلَى دَرَجَاتِ الْعُلَمَاءِ، قَالَ – تَعَالَى -: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، أَيْ: أَنَا وَأَتْبَاعِي عَلَى بَصِيرَةٍ، وَقِيلَ:"وَمَنِ اتَّبَعَنِي" عَطْفٌ عَلَى الْمَرْفُوعِ بِأَدْعُو أَيْ أَنَا أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، وَمَنِ اتَّبَعَنِي كَذَلِكَ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، وَعَلَى الْقَوْلَيْنِ فَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَتْبَاعَهُ هُمْ أَهْلُ الْبَصَائِرِ الدَّاعِينَ إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، فَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ فَلَيْسَ مِنْ أَتْبَاعِهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ وَالْمُوَافَقَةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَتْبَاعِهِ عَلَى الِانْتِسَابِ وَالدَّعْوَى، وَقَوْلُهُ: وَفِي إِرْشَادِكَ الْحَقِيقَةَ، إِمَّا أَنْ يُرِيدَ: أَنَّكَ إِذَا أَرْشَدْتَ غَيْرَكَ تَبْلُغُ فِي إِرْشَادِهِ إِلَى الْحَقِيقَةِ، أَوْ تَبْلُغُ فِي إِرْشَادِ غَيْرِكَ لَكَ إِلَى الْحَقِيقَةِ، وَلَا تَقِفُ دُونَهَا، فَعَلَى الْأَوَّلِ: الْمَصْدَرُ مُضَافٌ إِلَى الْفَاعِلِ، وَعَلَى الثَّانِي: إِلَى الْمَفْعُولِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّكَ تَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْوُجُودِ الَّذِينَ إِذَا أَشَارُوا لَمْ يُشِيرُوا إِلَّا إِلَى الْغَايَةِ الْمَطْلُوبَةِ الَّتِي لَيْسَ وَرَاءَهَا مَرْمَى، وَالْقَوْمُ يُسَمُّونَ أَخْبَارَهُمْ عَنِ الْمَعَارِفِ وَعَنِ الْمَطْلُوبِ إِشَارَاتٍ لِأَنَّ الْمَعْرُوفَ أَجَلُّ مَنْ أَنْ يُفْصَحَ عَنْهُ بِعِبَارَةٍ مُطَابِقَةٍ، وَشَأْنُهُ فَوْقَ ذَلِكَ، فَالْكَامِلُ مَنْ إِشَارَتُهُ إِلَى الْغَايَةِ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا لِمَنْ فَنِيَ عَنْ رَسْمِهِ وَهَوَاهُ وَحَظِّهِ، وَبَقِيَ بِرَبِّهِ وَمُرَادِهِ الدِّينِيِّ الْأَمْرِيِّ وَكُلُّ أَحَدٍ، فَإِشَارَتُهُ بِحَسَبِ مَعْرِفَتِهِ

وَهِمَّتِهِ، وَمَعَارِفُ الْقَوْمِ وَهِمَّتُهُمْ تُؤْخَذُ مِنْ إِشَارَتِهِمْ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ).

وللحكمة ثلاثة أَركان: العلم، والحلم، والْأَناة، وآفاتُها وأَضدادها: الجهل، والطّيشُ، والعَجَلةُ. [مدارج السالكين].

الأحبة الكرام

إذا كانت الحكمة بهذا القدر والقيمة والشأن والمكانة، فدعونا نطرح سؤالًا، هل يمكن لأي إنسان أن يحصّل الحكمة، ويصير حكيمًا؟، وللجواب عن هذا السؤال لابد وأن نعلم أولًا أن الحكمة تنقسم إلى قسمين:

حكمة فطرية: يؤتيها الله – عز وجل – من يشاء من عباده، ويتفضل بها على من يريد من خلقه، وهذه لا دخل للعبد فيها، وهي التى عناها عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – حينما كتب إلى أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – قائلًا:"إِنَّ الْحِكْمَةَ لَيْسَتْ عَنْ كِبَرِ السِّنِّ، وَلَكِنَّهُ، عَطَاءُ اللَّهِ يُعْطِيهِ مَنْ يَشَاءُ فَإِيَّاكَ وَدَنَاءَةَ الْأُمُورِ وَمِرَاقَ الْأَخْلَاقِ" [الإشراف في منازل الأشراف لابن أبي الدنيا].

القسم الثانى: حكمة مكتسبة، يكتسبها العبد بفعل أسبابها، وترك موانعها.

فالنوع الأول عطاء من الله لا دخل للعبد فيه، والنوع الثانى يستطيع العبد تحصيله فيصير به حكيمًا؛ وذلك بفعل أسبابه، وترك موانعه، وعلى هذا فلا بد لمن أراد تحصيل الحكمة المكتسبة، أن يعلم ويتعلم ما هي الأسباب التى بها يحصّل الحكمة، وأنا أضع أمامك أخى القارئ

الكريم بعضًا من هذه الأسباب والوسائل، فمن أسباب اكتساب الحكمة وتحصيلها:

١- كثرة العبادة الحقة لله – تعالى – والارتباط الوثيق به – سبحانه -، والبعد عن معاصيه، وطرد الهوى، وبالجملة أن يعيش العبد حالة إيمانية دائمة مع ربه – جل وعلا -، فعن الحسن – رحمه الله -، قال:(من أحسن عبادة الله فى شبيبته، لقّاه الله الحكمة عند كبره؛ فذلك قوله: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٢٢])، وقال ابن الجوزي – رحمه الله -:(لكل باب مفتاح ومفتاح الحكمة طرد الهوى)، وعن مَالِك بن دِينَارٍ، قَالَ:(قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ اتَّخِذْ طَاعَةَ اللَّهِ تِجَارَةً تَأْتِكَ الْأَرْبَاحُ مِنْ غَيْرِ بِضَاعَةٍ).

٢- تحرى الحلال فى شأنه كله من مأكل ومشرب وملبس وغيره، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمْ - قَالَ:"نَفَثَ رُوحُ الْقُدُسِ فِي رَوْعِي أَنَّ نفْسًا لَنْ تَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا، وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا، فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمِ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ" [البزار، والطبراني، وابن أبي شيبة]، وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:"أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ" [ابن ماجة، وابن حبان]، قال الحافظ

البيهقي في [الشعب]:(وَفِي هَذَا مَا دَلَّ أَنَّهُ أَمَرَ بِطَلَبِ الرِّزْقِ إِلَّا أَنَّهُ أَمَرَ بِإِجْمَالِهِ، وَإِجْمَالُ الطَّلَبِ هُوَ أَنْ يَطْلُبَهُ مِنَ الْحَلَالِ مُعْتَمِدًا عَلَى اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَلَا يُلَاحِظَ فِي طَلَبِهِ قَوَاهُ وَمَكَايِدَهُ وَحِيَلَهُ وَلَا يَطْلُبُهُ مِنَ الْحَرَامِ)، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -:"أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ:﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١] وَقَالَ:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟" [مسلم].

٣- التحلّى بالصمت عمّا لا فائدة منه، فالحكيم يعرف بالصمت وقلة الكلام، وإذا تكلم تكلم بالحق، وإن تلفظ تلفظ بخير أو سكت، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:"مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ" [متفق عليه]، وعَنْ أَبِي خَلَّادٍ، وَكَانَتْ، لَهُ صُحْبَةٌ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:"إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ قَدْ أُعْطِيَ زُهْدًا فِي الدُّنْيَا، وَقِلَّةَ مَنْطِقٍ، فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ، فَإِنَّهُ يُلْقِي الْحِكْمَةَ"، وفي رواية:"فَإِنَّهُ يُلَقَّى الْحِكْمَةَ" [ابن ماجة، والطبراني، والبيهقي]، وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

- قَالَ:"الحَيَاءُ وَالعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنَ الإِيمَانِ، وَالبَذَاءُ وَالبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ النِّفَاقِ" [قال الحافظ الترمذي:(وَالعِيُّ قِلَّةُ الكَلَامِ، وَالبَذَاءُ: هُوَ الفُحْشُ فِي الكَلَامِ، وَالبَيَانُ: هُوَ كَثْرَةُ الكَلَامِ) [سنن الترمذي]، وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ قَالَ يَوْمًا وَذَكَرَ لُقْمَانَ الْحَكِيمَ، فَقَالَ:"مَا أُوتِيَ عَنْ أَهْلٍ وَلَا مَالٍ وَلَا حَسَبٍ ولا خصال ولكنه كان رجلًا ضمضامة سِكِّيتًا طَوِيلَ التَّفَكُّرِ عَمِيقَ النَّظَرِ ..."، وعن سفيان، قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ مَا نَدِمْتُ على السكوت قَطُّ وَإِنْ كَانَ الْكَلَامُ مِنْ فِضَّةٍ فَالسُّكُوتُ مِنْ ذَهَبٍ) [البداية والنهاية].

٤- التفقه فى الدين، قال – تعالى -:" يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ ..." [البقرة: ٢٦٩]، قَالَ مُجَاهِدٌ:(هِيَ الْقُرْآنُ وَالْعِلْمُ وَالْفِقْهُ)، وَقَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ:(الْحِكْمَةُ الْمَعْرِفَةُ بِدِينِ اللَّهِ وَالْفِقْهِ فِيهِ وَالِاتِّبَاعِ لَهُ)، وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، قَالَ:"مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ" [الترمذي]، فطلب الفقه من أسباب تحصيل الحكمة؛ فإن من معانيها الفقه فى الدين.

٥- التخلق بمكارم الأخلاق وحميد الصفات، وعدم الإنشغال بما لا يعنيه، فعَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، يُحَدِّثُنَا، إِذْ قَالَ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَاحِشًا وَلاَ مُتَفَحِّشًا، وَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ:"إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاَقًا" [متفق عليه]، وعَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ:"إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ

مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ وَالمُتَفَيْهِقُونَ"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ فَمَا المُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ:"المُتَكَبِّرُونَ" [الترمذي]، وعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:"أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا" [أبو داود]، وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ:"مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ" [أبو داود]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -:"مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ" [الترمذي]، وعن عمر مولى عفرة قَالَ وَقَفَ رَجُلٌ عَلَى لُقْمَانَ الْحَكِيمِ، فَقَالَ:أنت لقمان أنت عبد بنى النحاس، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَأَنْتَ رَاعِي الْغَنَمِ الْأَسْوَدُ، قَالَ: أَمَّا سَوَادِي فَظَاهِرٌ، فَمَا الَّذِي يُعْجِبُكَ مِنْ أَمْرِي؟، قَالَ: وَطْءُ النَّاسِ بِسَاطَكَ وَغَشْيُهُمْ بَابَكَ وَرِضَاهُمْ بِقَوْلِكَ، قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي إِنْ صَنَعْتَ مَا أَقُولُ لَكَ كُنْتَ كَذَلِكَ، قَالَ: مَا هُوَ، قَالَ لُقْمَانُ: غَضِّي بَصَرِي، وكفى لساني، وعفة مطمعي، وَحِفْظِي فَرْجِي، وَقِيَامِي بِعُدَّتِي، وَوَفَائِي بِعَهْدِي، وَتَكْرُمَتِي ضَيْفِي، وَحِفْظِي جَارِي، وَتَرْكِي مَا لَا يَعْنِينِي، فَذَاكَ الَّذِي صَيَّرَنِي كَمَا تَرَى، [البداية والنهاية]، وقال الشافعي - رضي الله عنه -:(من أراد أن ينور الله قلبه فليترك الكلام فيما لا يعنيه) [نزهة المجالس].

٦- مجالسة أهل الصلاح والاختلاط بهم، والاستفادة منهم، قال الله – تعالى – لنبيه – ﷺ -: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ...﴾ [الكهف: ٢٨]، أَيْ: اجْلِسْ مَعَ الَّذِينَ

يَذْكُرُونَ اللَّهَ وَيُهَلِّلُونَهُ، وَيَحْمَدُونَهُ وَيُسَبِّحُونَهُ وَيَكْبُرُونَهُ، وَيَسْأَلُونَهُ بِكُرَةً وَعَشِيًّا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، سَوَاءً كَانُوا فُقَرَاءَ أَوْ أَغْنِيَاءَ أَوْ أَقْوِيَاءَ أَوْ ضُعَفَاءَ. [تفسير ابن كثير]، وعَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ -، قَالَ:"إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ، وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ، وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً" [متفق عليه]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، قَالَ:"إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً فُضُلًا عَنْ كُتَّابِ النَّاسِ، يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ، يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ، فَيَحُفُّونَ بِهِمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ، فَيَقُولُ: مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: يُكَبِّرُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ وَيُسَبِّحُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟ فَيَقُولُونَ: لَا، فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ لَكَانُوا لَكَ أَشَدَّ عِبَادَةً وَأَكْثَرَ تَسْبِيحًا وَتَحْمِيدًا وَتَمْجِيدًا، فَيَقُولُ: وَمَا يَسْأَلُونِي؟، قَالَ: فَيَقُولُونَ: يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: فَهَلْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا عَلَيْهَا أَشَدَّ حِرْصًا وَأَشَدَّ طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً، فَيَقُولُ: وَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ فَيَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ، فَيَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا لَكَانُوا مِنْهَا أَشَدَّ فِرَارًا، وَأَشَدَّ هَرَبًا، وَأَشَدَّ خَوْفًا، فَيَقُولُ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: أُشْهِدُكُمْ أَنِّي

قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، قَالَ:، فَقَالَ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: إِنَّ فِيهِمْ فُلَانًا لَيْسَ مِنْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ، قَالَ: فَهُمُ الْجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ" [متفق عليه]، وعَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، قَالَ:(قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ:يَا بُنَيَّ اخْتَرِ الْمَجَالِسَ عَلَى عَيْنِكَ فَإِذَا رَأَيْتَ الْمَجْلِسَ يُذْكَرُ فِيهِ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فَاجْلِسْ مَعَهُمْ فَإِنَّكَ إِنْ تَكُ عَالِمًا يَنْفَعْكَ عِلْمُكَ وَإِنْ تَكُ غَبِيًّا يُعَلِّمُوكَ وَإِنْ يَطَّلِعِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ برحمة تصيبك مَعَهُمْ، يَا بُنَيَّ لَا تَجْلِسْ فِي الْمَجْلِسِ الَّذِي لَا يُذْكَرُ اللَّهُ فِيهِ فَإِنَّكَ إِنْ تَكُ عَالِمًا لَا يَنْفَعُكَ عِلْمُكَ وَإِنْ تَكُ غبيا يزيدوك غبيا وَإِنْ يَطَّلِعِ اللَّهُ إِلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِسُخْطٍ يصيبك معهم يا بنى لا تغبطوا أمراء رَحْبَ الذِّرَاعَيْنِ يَسْفِكُ دِمَاءَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ قَاتِلًا لَا يَمُوتُ)، وعَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ:(قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ إِذَا أتيت نادى قوم فادمهم بسهم الإسلام يعنى السلام ثم اجلس بناحيتهم فَلَا تَنْطِقُ حَتَّى تَرَاهُمْ قَدْ نَطَقُوا فَإِنْ أَفَاضُوا فِي ذِكْرِ اللَّهِ فَأَجِلْ سَهْمَكَ مَعَهُمْ وان أفاضوا في غير ذلك فحول عَنْهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ) [البداية والنهاية]، وقال الإمام الغزالي:(أربعة تزيد في العقل: ترك الفضول من الكلام والسواك ومجالسة الصالحين والعلماء) [إحياء علوم الدين]، وقال الأزدي:(سمعت إبراهيم الخواص يقول: دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين) [صفة الصفوة].

٧- كثرة التجارب والاستفادة من مدرسة الحياة، فالإنسان فى هذه الحياة

يمر بكثير من المواقف والتجارب، والعاقل من يستفيد من مواقف الحياة وتجاربها بالاعتبار، وأخذ الحيطة لأمر الدين والدنيا، كما جاء فى الحديث:لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ" [متفق عليه]، وتزيده المواقف والتجارب معرفة وخبرة، قَالَ مُعَاوِيَةُ – رضي الله عنه -:"لاَ حَكِيمَ إِلَّا ذُو تَجْرِبَةٍ" [البخاري]، أي:لا تحصل الحكمة لدى الإنسان إلا بعد التجربة؛ لأنه يكون قد أدرك الأمور، وعرف كيف يتصرف فيها، وقيل:(أَيْ: لَا حَكِيمَ كَامِلًا إِلَّا مَنْ جَرَّبَ الْأُمُورَ وَعَلِمَ الْمَصَالِحَ وَالْمَفَاسِدَ، فَإِنَّهُ لَا يَفْعَلُ فِعْلًا إِلَّا عَنْ حُكْمِهِ إِذِ الْحِكْمَةُ إِحْكَامُ الشَّيْءِ لِإِصْلَاحِهِ مِنَ الْخَلَلِ) [مرقاة المفاتيح].

٨- التخلص من موانع اكتسابها، ومنها:

- التَّعجُّلُ في الأمورِ، وتَركُ التَّأنِّي في اتِّخاذِ القرارِ؛ فالعَجَلةُ في غيرِ مَوضِعِها تدُلُّ على خِفَّةِ العَقلِ، وقِلَّةِ رزانتِه، وغَلَبةِ الشَّهوةِ عليه؛ ولهذا جعَل ابنُ القَيِّمِ من آفاتِ الحِكمةِ وأضدادِها العَجَلةَ، وقال: (فلا حِكمةَ لجاهِلٍ، ولا طائِشٍ، ولا عَجولٍ)، وقال ابنُ حِبَّانَ: (والعَجِلُ يقولُ قبلَ أن يَعلَمَ، ويجيبُ قبلَ أن يَفهَمَ، ويَحمَدُ قبلَ أن يُجرِّبَ، ويَذُمُّ بعدَ ما يحمَدُ، ويَعزِمُ قبلَ أن يُفكِّرَ، ويمضي قبل أن يَعزِمَ، والعَجِلُ تَصحبُه النَّدامةُ، وتعتَزِلُه السَّلامةُ. وكانت العَرَبُ تُكَنِّي العَجَلةَ: أمَّ النَّداماتِ).
- ضِيقُ الأفُقِ، وعدَمُ التَّفكُّرِ في عواقِبِ الأمورِ، ونقصِدُ بضيقِ الأفُقِ: سَطحيَّةَ التَّفكيرِ وبساطتَه إلى حَدِّ الغفلةِ أو السَّذاجةِ، والنَّظَرَ إلى

الأمورِ من جانبٍ واحدٍ، وسوءَ تقديرِ العواقِبِ والنَّتائجِ، والجَهلَ بالواقعِ، يضافُ إلى ذلك عشوائيَّةُ العَمَلِ، وارتجاليَّةُ الأهدافِ، وإهدارُ الطَّاقاتِ في قضايا ثانويَّةٍ، وتبديدُ الجهودِ في أمورٍ هامشيَّةٍ، وشَغلُ النَّفسِ بالكماليَّاتِ مع التَّفريطِ بالضَّروريَّاتِ.

- فقدُ البصيرةِ الدَّالَّةِ على حقائِقِ الأمورِ.
- عَدَمُ استشارةِ الصَّالحين وأهلِ الخِبرةِ.
- عَدَمُ الاستفادةِ من خبراتِ السَّابقين.
- من موانعِها أيضًا ما ذكره إبراهيمُ الخوَّاصُ؛ حيث قال: (الحِكمةُ تَنزِلُ من السَّماءِ، فلا تَسكُنُ قَلبًا فيه أربعةٌ: الرُّكونُ إلى الدُّنيا، وهمٌّ غَدٍ، وحُبُّ الفُضولِ، وحَسَدُ ... إلخ).
- الجهل والطيش وسرعة الغضب، قال لقمان لابنه:(يَا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَشِدَّةَ الْغَضَبِ فَإِنَّ شِدَّةَ الْغَضَبِ مَمْحَقَةٌ لِفُؤَادِ الْحَكِيمِ) [البداية والنهاية، موقع الدرر السنية].
- وللحكمة ثلاثة أَركان:العلم، والحلم، والْأَناة، وآفاتُها وأَضدادها:الجهل، والطّيشُ، والعَجَلةُ. [مدارج السالكين]، هذه بعض الأسباب والوسائل التى يحصّل العبد بها الحكمة المكتسبة.

الشكر فى مقابل النعمة

قال الله – تعالى -:" وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ" [لقمان: ١٢]، بعد أن تكلمنا عن الحكمة وأهميتها وأقسامها، وأسباب اكتسابها، وغير ذلك مما

يتعلق بها، نعيش مع قوله – تعالى -: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾.

الشكر هو الحكمة الأولى فى الوجود، بل هو رأس الحكمة ولبنة بنائها الأولى، فالإنسان مأمور بأن يشكر الله الذى خلقه وجعله فى الأرض خليفة، يشكره على ما قدم له قبل أن يوجد، وعلى ما أعطاه قبل أن يفكر، فالشكر هو المعول الذى يهدم بناء الاغترار الذى يفسد خلافة الإنسان فى الأرض، فإذا غاب الشكر نسي الإنسان أنه مجرد خليفة فى الأرض، وظن أنه أصيل فى الكون، ولنتأمل هذه الآيات، قال الله – تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]، وعدد الله بعض نعمه على خلقه، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم:٣٢، ٣٣]، ثم قال – سبحانه -: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، لذا كان عمل الشيطان فى إفساد بنى آدم أن يحول بينهم وبين الشكر، فقال:﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، فالشكر هو السبيل لانضباط الإنسان فى خلافته فى الأرض.

والشكر هو غاية إنعام الله على عباده، فكم قال الله – تعالى –

فى مواطن تعداد النعم على عباده: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، كما فى قوله – جل وعلا -:﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وقال – تعالى -:﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -:"إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا" [مسلم].

وكما أن الشكر هو غاية الإنعام ومقصوده، فهو أيضًا سبب زيادة النعم ودوامها، قال – تعالى -:﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ...﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال – سبحانه -: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ...﴾ [الزمر: ٧]، وقال الله – تعالى – على لسان نبيه سليمان – عليه السلام -: ﴿... هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]، فالشكر قيد النعم، إذا شكرت النعم اتسعت وبارك الله فيها وعظم الانتفاع بها، ومتى كفرت النعم زالت وربما نزلت العقوبات العاجلة قبل الآجلة، قال الله – تعالى –﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]، ولذا يقول القائل:

إذا كنت في نعمة فارعها فإن الذنوب تزيل النعم

وحطها بطاعة رب العباد فرب العباد سريع النقم

بل جعل الله الشكر فى ذاته نعمة تستوجب الشكر، تأملوا قول الله – عز وجل -: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم:٤٦]، نلاحظ أن الله – تعالى – ختم الآية بقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، ولم يقل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فهناك فرق كبير بينهما، فقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يدل على أن الشكر غاية النعم كما قلنا سابقًا، وأما قوله:"وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"، عطف الشكر على النعم، فجعله فى ذاته نعمة تستوجب الشكر، والشكر على نعمة الشكر نعمة أخرى تستوجب الشكر عليها فلا ينتهى الشكر، ولا يعدم الشكر إلا ظلوم جاهل جاحد.

ولذا عاب الله على عباده قلة شكرهم، فقال: ﴿... اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]، وقال – جل وعلا -: ﴿... فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، وقال – سبحانه -: ﴿... وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وقال: ﴿... إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس:٦٠]، وقال – تعالى -: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٣].

وكفى بالشكر شرفًا وقدرًا أن الله – جل جلاله – وصف به ذاته، قال – تعالى -: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء:١٤٧]، وقال – جل وعلا -: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٠]، وقال: ﴿... وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى:٢٣]، وقال الله – تعالى -: ﴿... وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧] (١٧) وسمى نفسه (الشكور)، كما فى حديث أبى هريرة عند الترمذي وغيره، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -:"إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً غَيْرَ وَاحِدٍ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ ..." الحديث، وعد منها:"الشَّكُورُ"، ومعنى أن الله – تعالى – شاكر وشكور، أي: أنه – تعالى – يقبل القليل من أعمال العباد ويعطيهم عليها من الأجر والثواب الكثير.

لذا كان الشكر عمل الأنبياء والصالحين من عباد الله، قال – تعالى – عن نبيه نوح – عليه السلام -: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، روى البخاري عن أبى هريرة – رضي الله عنه -: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - أُتِيَ بِلَحْمٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَشَ مِنْهَا نَهْشَةً، ثُمَّ قَالَ:"أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ، ..." الحديث، وفيه قال:"... فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، ..." الحديث، وعَنْ سَعْدِ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيِّ قَالَ:"إِنَّمَا سُمِّيَ نُوحٌ عَبْدًا شَكُورًا لِأَنَّهُ كَانَ إِذَا أَكَلَ وَشَرِبَ حَمِدَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ" [الطبراني]، وقال الحافظ ابن كثير:(وَقَالَ مَالِكٌ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ:

كَانَ يَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ حَالٍ) [تفسير ابن كثير]، وقال الله – عز وجل – عن خليله إبراهيم – عليه السلام -: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١]، وكان من دعائه – عليه السلام -: ﴿... رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وقال الله – تعالى – لكليمه موسى – عليه السلام :﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[الأعراف: ١٤٤]، وقال الله – تعالى – لنبيه داود – عليه السلام – وآله: ﴿... اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره:(أَيْ: وَقُلْنَا لَهُمُ اعْمَلُوا شُكْرًا عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالدِّينِ)، وروى عن فضيل فِي قَوْلِهِ – تَعَالَى -:﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾، فَقَالَ دَاوُدُ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَشْكُرُكَ، وَالشُّكْرُ نِعْمَةٌ مِنْكَ؟، قَالَ:"الْآنَ شَكَرْتَنِي حِينَ عَلِمْتَ أَنَّ النِّعْمَةَ مِنِّي" [تفسير ابن كثير]، وقال الله – عوز وجل – عن نبيه سليمان – عليه السلام –: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، وقال عنه أيضًا: ﴿... فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]، وقال

الله – تعالى – لنبيه محمد – ﷺ -:﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٦]، وعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -، إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَفَطَّرَ رِجْلَاهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَتَصْنَعُ هَذَا، وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَقَالَ:"يَا عَائِشَةُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا" [متفق عليه]، وكان من دعائه – ﷺ -: "وَاجْعَلْنَا شَاكِرِينَ لِنِعْمَتِكَ، مُثْنِينَ بِهَا، قَابِلِيهَا وَأَتِمَّهَا عَلَيْنَا" [أبو داود]، وكان الشكر وصيته لأصحابه ولأمته، ففى حديث معاذ بن جبل – رضي الله عنه -: "أَنَّ رَسُولَ - صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ:"يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ"، فَقَالَ:"أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ "، قال أبو داود:(وَأَوْصَى بِذَلِكَ مُعَاذٌ الصُّنَابِحِيَّ، وَأَوْصَى بِهِ الصُّنَابِحِيُّ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ) [سنن أبى داود]، وقال – تعالى -: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقال – تعالى -:﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقال – سبحانه -:﴿... أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقال – جل وعلا -:"...وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ"، "... وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ"[آل عمران: ١٤٤، ١٤٥].

الفرق بين الحمد والشكر

للعلماء كلام كثير فى الفرق بينهما، ومن أحسن المواطن التى جمعت هذه الآراء ما ذكره الإمام القرطبي – رحمه الله – في تفسيره حيث قال:(الْخَامِسَةُ ذَهَبَ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبَرِيُّ وَأَبُو الْعَبَّاسِ الْمُبَرِّدُ إِلَى أَنَّ الْحَمْدَ وَالشُّكْرَ بِمَعْنًى وَاحِدٍ سَوَاءً، وَلَيْسَ بِمَرْضِيٍّ، وَحَكَاهُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ فِي كِتَابِ" الْحَقَائِقِ" لَهُ عَنْ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ وَابْنِ عَطَاءٍ، قَالَ ابْنُ عَطَاءٍ: مَعْنَاهُ الشُّكْرُ لِلَّهِ، إِذْ كَانَ مِنْهُ الِامْتِنَانُ عَلَى تَعْلِيمِنَا إِيَّاهُ حَتَّى حَمِدْنَاهُ، وَاسْتَدَلَّ الطَّبَرِيُّ عَلَى أَنَّهُمَا بِمَعْنًى بِصِحَّةِ قَوْلِكَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ شُكْرًا، قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ دَلِيلٌ عَلَى خِلَافِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ قَوْلَكَ شُكْرًا، إِنَّمَا خَصَصْتَ بِهِ الْحَمْدَ؛ لِأَنَّهُ عَلَى نِعْمَةٍ مِنَ النِّعَمِ، وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ الشُّكْرَ أَعَمُّ من الحمد، لأنه باللسان وبالجوارح وَالْقَلْبِ، وَالْحَمْدُ إِنَّمَا يَكُونُ بِاللِّسَانِ خَاصَّةً. وَقِيلَ: الْحَمْدُ أَعَمُّ؛ لِأَنَّ فِيهِ مَعْنَى الشُّكْرِ وَمَعْنَى الْمَدْحِ، وَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الشُّكْرِ؛ لِأَنَّ الْحَمْدَ يُوضَعُ مَوْضِعَ الشُّكْرِ وَلَا يُوضَعُ الشُّكْرُ مَوْضِعَ الْحَمْدِ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ كَلِمَةُ كُلِّ شَاكِرٍ، وَإِنَّ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ حِينَ عَطَسَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَقَالَ اللَّهُ لِنُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -:"فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ"، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -:"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ"، وَقَالَ فِي قِصَّةِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ:"وَقالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ"، وَقَالَ لِنَبِيِّهِ - ﷺ -:"وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً"، وَقَالَ أَهْلُ الْجَنَّةِ:"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ"، " وَآخِرُ

دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ"، فَهِيَ كَلِمَةُ كُلِّ شَاكِرٍ، قُلْتُ: الصَّحِيحُ أَنَّ الْحَمْدَ ثَنَاءٌ عَلَى الْمَمْدُوحِ بِصِفَاتِهِ مِنْ غَيْرِ سَبْقِ إِحْسَانٍ، وَالشُّكْرِ ثَنَاءٌ عَلَى الْمَشْكُورِ بِمَا أَوْلَى مِنَ الْإِحْسَانِ، وَعَلَى هَذَا الْحَدِّ قَالَ عُلَمَاؤُنَا: الْحَمْدُ أَعَمُّ مِنَ الشُّكْرِ؛ لِأَنَّ الْحَمْدَ يَقَعُ عَلَى الثَّنَاءِ وَعَلَى التَّحْمِيدِ وَعَلَى الشُّكْرِ، وَالْجَزَاءُ مَخْصُوصٌ إِنَّمَا يَكُونُ مُكَافَأَةً لِمَنْ أَوْلَاكَ مَعْرُوفًا، فَصَارَ الْحَمْدُ أَعَمَّ فِي الْآيَةِ لِأَنَّهُ يَزِيدُ عَلَى الشُّكْرِ) [تفسير القرطبي].

والخلاصة: أن الحمد أعم من الشكر، فالحمد ثناء على الممدوح بصفاته وأفعاله فى ذاته سواء تقدم إحسانه أولم يتقدم، أما الشكر فيكون بعد حدوث الإحسان، وصفة الحمد تكررت فى القرآن الكريم سبع عشرة مرة اقترنت بصيغة الغني عشر مرات "الغني الحميد"، أي: الذى لا منتهى لغناه شمل عطائه المؤمن والكافر، وهو محمود بكل لسان.

العلاقة بين الصبر والشكر

قال الله – تعالى -: ﴿... وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، قال الإمام البغوي:(﴿وَنَبْلُوكُمْ"، نَخْتَبِرُكُمْ "بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾، بِالشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ وَالصِّحَّةِ وَالسَّقَمِ وَالْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَقِيلَ: بِمَا تُحِبُّونَ وَمَا تَكْرَهُونَ، "فِتْنَةً"، ابْتِلَاءً لِنَنْظُرَ كَيْفَ شُكْرُكُمْ فِيمَا تُحِبُّونَ، وَصَبْرُكُمْ فِيمَا تَكْرَهُونَ)، وقال الإمام القرطبي:(أَيْ: نَخْتَبِرُكُمْ بِالشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، فَنَنْظُرَ كَيْفَ شُكْرُكُمْ وصبركم)، وقال الحافظ ابن كثير:(أَيْ:نَخْتَبِرُكُمْ بِالْمَصَائِبِ تَارَةً، وَبِالنِّعَمِ أُخْرَى، لِنَنْظُرَ مَنْ يَشْكُرُ وَمَنْ

يَكْفُرُ، وَمَنْ يَصْبِرُ وَمَنْ يَقْنَطُ)، هكذا اقتضت حكمة الله فى خلقه أن يعيش العبد الحياة بين الشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، فدوام الحال من المحال، والحياة لم تصف يومًا لأحد، من سره زمان ساءته أزمان، لكن المؤمن يعيش الحياة بشكل مختلف؛ فإن كان فى شدة واجهها بالصبر، وإن كان فى رخاء قابله بالشكر، فحاله كما وصفه رسول الله – ﷺ -:"عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ" [مسلم]، فالصبر والشكر هما سلاح المؤمن فى مواجهة تقلبات أحوال الحياة، فإن كانت الشدة واجهها بالصبر، وإن كان الرخاء قابله بالشكر، فكان أمره كله خيرًا.

أيهما أفضل: الغني الشاكر أم الفقير الصابر؟

هذه المسألة اختلف فيها أهل العلم على قولين:

القول الأول: أن الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر، واستدلوا بأدلة، منها:

١- أن من صفات الله (الغني)، قال – تعالى –:"يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ" [فاطر: ١٥]، ولا شك أن من وافق صفة من صفات الله كان أفضل.

٢- حديث أبى ذر – رضي الله عنه –، وفيه قال النبي – ﷺ -:"إِنَّ الْمُكْثِرِينَ هُمُ الْمُقِلُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا مَنْ أَعْطَاهُ اللهُ خَيْرًا، فَنَفَحَ فِيهِ

يَمِينَهُ وَشِمَالَهُ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ وَوَرَاءَهُ، وَعَمِلَ فِيهِ خَيْرًا" [متفق عليه].

٣- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللهِ - ﷺ -، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، فَقَالَ:"وَمَا ذَاكَ؟" قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ، فَقَالَ رَسُولَ اللهِ - ﷺ -:"أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ؟ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ"، قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ:"تُسَبِّحُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، وَتَحْمَدُونَ، دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً"، قَالَ أَبُو صَالِحٍ: فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللهِ - ﷺ -، فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ، فَقَالَ رَسُولِ اللهِ - ﷺ -:"ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ" [متفق عليه].

٤- عن مُوسَى بْن عَلِيٍّ قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي أَنَّهُ سَمِعَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -:"يَا عَمْرُو نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ مَعَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ" [صحيح ابن حبان، مسند أحمد].

٥- عَنْ أَبِي كَبْشَةَ الْأَنْمَارِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - يَقُولُ:"ثَلَاثٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ"، قَالَ:"فَأَمَّا الثَّلَاثُ الَّتِي أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ: فَإِنَّهُ مَا نَقَّصَ مَالَ عَبْدٍ صَدَقَةٌ، وَلَا ظُلِمَ عَبْدٌ بِمَظْلَمَةٍ فَيَصْبِرُ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللهُ بِهَا عِزًّا، وَلَا يَفْتَحُ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللهُ لَهُ بَابَ فَقْرٍ، وَأَمَّا الَّذِي أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ "، فَإِنَّهُ قَالَ:"إِنَّمَا

الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٌ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقَّهُ"، قَالَ:"فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ"، قَالَ:"وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا؟"، قَالَ:"فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ عَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ"، قَالَ:"فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ"، قَالَ:"وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقَّهُ، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ"، قَالَ:"وَعَبْدٌ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مَالًا، وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، قَالَ:"هِيَ نِيَّتُهُ، فَوِزْرُهُمَا فِيهِ سَوَاءٌ" [الترمذي، وأحمد]، قالوا: إنما فضّل الأول على الثانى بالمال.

٦- عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنْ أَبِيهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - يَعُودُنِي عَامَ حَجَّةِ الوَدَاعِ مِنْ وَجَعٍ اشْتَدَّ بِي، فَقُلْتُ:إِنِّي قَدْ بَلَغَ بِي مِنَ الوَجَعِ وَأَنَا ذُو مَالٍ، وَلاَ يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَةٌ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي؟، قَالَ:"لاَ"، فَقُلْتُ: بِالشَّطْرِ؟، فَقَالَ:"لاَ"، ثُمَّ قَالَ:"الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَبِيرٌ - أَوْ كَثِيرٌ - إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، ..." الحديث [متفق عليه].

القول الثانى: أن الفقير الصابر أفضل، واستدلوا بأدلة، منها:

١- عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، فَقَالَ لرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ:"مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا"، فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، قَالَ:

فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -، ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:"مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا"، فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لاَ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لاَ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لاَ يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:"هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا" [رواه البخاري فى باب: فضل الفقر، وأورد فيه أيضًا عن عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ:"اطَّلَعْتُ فِي الجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الفُقَرَاءَ ..." الحديث.

٢- قالوا: أن الله – عز وجل – أوصى نبيه بالفقراء، فقال له: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٢]، وسبب نزول هذه الآية أن النبي – ﷺ – كان يجالس الفقراء فأنف بعض الأغنياء من ذلك وقالوا: اجعل لنا يومًا ولهم يومًا، وقال بعضهم: أبعد هؤلاء عن مجلسك ونحن نغشاك، إلى غير ذلك مما ذكره أهل التفسير فى سبب نزولها فأنزل الله هذه الآية، وأنزل أيضًا قوله – تعالى -:﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

٣- قالوا أيضًا: أن البطر يكون مع الغنى، والفقير مستريح من هذا البطر ومن زينة الدنيا، ولا سواء فى عمل القلب، فإن الغنى يفتح

باب الشهوات التى مظنتها الهلكة وغضب الرحمن كما قال الله – عز وجل -: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، "أَمَرْنَا"، أي: كثّرنا من الكثرة، "مُتْرَفِيهَا"، أي: مُنَعَّمِيهَا وَأَغْنِيَاءَهَا "فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ"، وَجَبَ عَلَيْهَا الْعَذَابُ، "فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً"، أَيْ: خَرَّبْنَاهَا وَأَهْلَكْنَا مَنْ فِيهَا [تفسير البغوي]، فقالوا: لولم يكن للغنى من آفة إلا فتح أبواب الشهوات على الإنسان لكان كافيًا، والفقير معافى من ذلك كله، ولذلك كان الإمام أحمد يقول:"أَنَا لَا أَعْدِلُ بِالْفَقْرِ شَيْئًا" [الآداب الشرعية للمقدسي]، وما كان أحد أعز فى مجلسه من الفقير، والغنى كما أنه يفتح باب الشهوات لا بد وأن يفتح باب النقائص على العبد إن لم يكن مؤمنًا.

والصواب فى هذه المسألة: أنه لا يفضل الغني لغناه، ولا الفقير لفقره، قال – تعالى -: ﴿ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلى بِهِما﴾ [النساء: ١٣٥]، وإنما يفضل كل إنسان بما عنده من الفضل، وما عنده من الإيمان، فإن الغنى والفقر كما قال ابن مسعود:"الفقر والغنى مطيتان ما أبالي أيّهما ركبت، إن كان الفقر فإن فيه الصبر، وإن كان الغنى فإن فيه البدل" [قوت القلوب لأبى طالب المكي]، وكما قال عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -:"الْغِنَى وَالْفَقْرُ مَطِيَّتَانِ لَا أُبَالِي أَيَّهُمَا أَرْكَبُ" [مرقاة المفاتيح]، فالغني المنفق خير من الفقير الحريص بلا شك، فالمسألة ليست مسألة غنًا أو فقر وإنما المسألة كلها مربوطة بالإيمان، وقد وجد فى طائفة الأغنياء سادة وفى

طائفة الفقراء سادة، فمن طائفة الأغنياء من الأنبياء الخليل إبراهيم وأيوب وداود وسليمان – عليهم السلام – ومن الصالحين عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف – رضي الله عنهما -، وكان من طائفة الفقراء من الأنبياء عيسى ويحيى بن زكريا – عليهم السلام – ومن الصالحين أبو ذر وسليمان – رضي الله عنهما – وغيرهما، أما نبينا – ﷺ – فنال فضل الطائفتين جميعًا، نال إحسان الأغنياء وصبر الفقراء، فكلًا يفضل بما فى قلبه من الإيمان والتقوى كما قال الله – تعالى -: ﴿... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

الشكر لله وأثره للعبد

قال الله – تعالى -: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢]، قلنا أن الحكمة نعمة بل هي من أعظم النعم لذا جاء الأمر بالشكر بعدها؛ فإن الشكر هو عمل العبد فى مقابل نعم الله – عز وجل -، وقوله – تعالى -: "أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ"؛ لأنه – سبحانه – المستحق للشكر وحده فلا يشكر إلا الله، وقد يقول قائل: إذا كان الشكر لا يكون إلا لله وحده فما نقول فى قوله – تعالى -:"أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ" [لقمان: ١٤]، وقول النبي – ﷺ -: "مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ" [أبو داود، والترمذي]، والجواب: أننا إذا حلّلنا الشكر لغير الله لكان مآله إلى شكر الله – عز وجل -، فشكر الوالدين راجع إلى شكره – تعالى -؛ لأنه هو الذى جعلهما سببًا لوجودك فى الحياة، وهو الذى حرك قلبيهما بالمحبة والود والرعاية لك،

فشكرهما على الحقيقة مآله إلى شكر الله – تعالى -، كذلك من صنع لك معروفًا أو قضى لك حاجة فشكرك له مآله إلى شكره – تعالى -، لأنه هو الذى جعله سببًا لقضاء حاجتك، وهكذا فالشكر لغير الله مآله إلى شكر الله – تعالى -.

ثم يقول الله – عز وجل -:"وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ"، فالله – عز وجل – غني عن عباده لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية، قال – سبحانه -: ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، وقال – سبحانه -: ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ...﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال – تعالى – على لسان نبيه سليمان – عليه السلام -: ﴿... هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠]، وقال – تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وقال – سبحانه – على لسان كليمه موسى – عليه السلام -:﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقال – جل وعلا -: ﴿وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّمَا يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ﴾[العنكبوت: ٦]، وقال – تعالى -:﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ...﴾ [الزمر: ٧]، وقال الله – عز وجل – فى الحديث القدسي:"يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا

مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ، إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ" [مسلم]، فالله – عز وجل – لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين، فالشكر لله – تعالى – وإنما أثره يعود على العبد إذ به يحفظ نعم الله عليه ويستزيد منها، فقوله:"وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ"، أَيْ يُعُودُ نَفْعُ شُكْرِهِ إِلَيْهِ وَهُوَ أَنْ يَسْتَوْجِبَ بِهِ تَمَامَ النِّعْمَةِ وَدَوَامَهَا؛ لِأَنَّ الشُّكْرَ قَيْدُ النِّعْمَةِ الْمَوْجُودَةِ وَصَيْدُ النِّعْمَةِ الْمَفْقُودَةِ. [البغوي، والقرطبي]، والشكر ليس مجرد كلمة تقال باللسان فقط بل يجب أن يترجم الشكر إلى واقع عملي باستعمال النعمة فى مرضاة المنعم – جل وعلا -.

ونلاحظ هنا فى الآية أن الله – تعالى – قال فى الشكر:"وَمَنْ يَشْكُرْ"

بصيغة المضارع التى تفيد التجدد والاستمرار بينما قال فى الكفر:"وَمَنْ كَفَرَ" بصيغة الماضى، وذلك أن الشكر باقٍ لا ينتهى متجدد مستمر، أما الكفر فمآله إلى الزوال، فإن الكافر قد يتوب ويرجع إلى الله – تعالى – ويدخل فى عداد الشاكرين، قال الإمام البقاعي:(وعبر بالماضي إشارة إلى أن من وقع منه كفر ولو مرة جوزي بالإعراض عنه) [نظم الدرر]، كما أن الله – تعالى – لا يرضى من عبده دوام الكفر كما قال – سبحانه -: "وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ"، وقال – تعالى -: ﴿... وَلكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

أسلوب الوعظ وأثره فى النفس

قال الله – تعالى -: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، أي: اذكر حين قال لقمان لابنه وهو يعظه، مادة (وعظ) تكررت فى القرآن الكريم أكثر من خمسمائة مرة دلالة على أهمية الوعظ وأثره البالغ فى النفوس، فما هو الوعظ؟:

الوعظ فى اللغة: مصدر وَعَظَ، والوَعْظُ: التَّذْكِيرُ بِالخَيْرِ، يُقال: وَعَظْتُ الرَّجُلَ أَعِظُهُ عِظَةً ومَوْعِظَةً: إذا ذَكَّرْتَهُ بِالخَيْرِ، وأَصْلُه: التَّخْوِيفُ والإِنْذارُ، والواعِظُ: النَّذِيرُ، ويأْتِي الوَعْظُ بِمعنى الأَمْرِ بِالطَّاعَةِ والتَّوْصِيَةِ بِها، فيُقال: وَعَظَهُ: إذا أَمَرَهُ ووَصَّاهُ بِالطَّاعَةِ، واتَّعَظَ فُلانٌ، أي: ائْتَمَرَ وكَفَّ نَفْسَهُ عن الخَطَأِ، ومِن مَعانِيه أيضًا: النُّصْحُ والإِرْشادُ والتَّحْذِيرُ.

الوعظ اصطلاحًا: عرفه العلماء بتعاريف عدة، قال الإمام الراغب:(الوعظ زجر مقترن بتخويف)، وقال الخليل :(هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب)، وقيل الوعظ :(هو تنبيه الغير إلى الأوامر والنواهي مع التذكير بالعواقب)، ويشتمل الوعظ على حسن المعانى والترغيب والترهيب والثواب والعقاب، ومنه قوله – تعالى -:﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، أي: تَذْكِيرٌ وَتَخْوِيفٌ، وقوله – سبحانه -:﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾ [النساء: ٦٣]، وعن العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ، قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ

مُوَدِّعٍ ..." الحديث [الترمذي]، والوعظ أيضًا معناه: التكليف والقيام بالأمر كما فى قوله – تعالى -:﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦]، قال الإمام البغوي:(﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾، يؤمرون بِهِ مِنْ طَاعَةِ الرَّسُولِ وَالرِّضَى بِحُكْمِهِ)، وقال الحافظ ابن كثير:(أَيْ: وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُؤْمَرُونَ بِهِ، وَتَرَكُوا مَا يُنْهَوْنَ عَنْهُ "لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ"، أَيْ: مِنْ مُخَالَفَةِ الْأَمْرِ وَارْتِكَابِ النَّهْيِ)، ومنه قوله – تعالى -:"ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" [المجادلة: ٣]، قال البغوي والقرطبي:("ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ"، تُؤْمَرُونَ بِهِ)، وإنما سمّي هذا التكليف وعظًا؛ لأن تكاليف الله – عز وجل – مقرونة بالوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، والثواب والعقاب، ويأتى أيضًا بمعنى النهي والتحذير، كما فى قوله – تعالى -:﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧]، قال ابن كثير:(أَيْ: يَنْهَاكُمُ اللَّهُ متوعِّدًا أَنْ يَقَعَ مِنْكُمْ مَا يُشْبِهُ هَذَا أَبَدًا، أَيْ: فِيمَا يُسْتَقْبَلُ)، وقال القرطبي:(أَيْ: يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ وَيَنْهَاكُمْ)، وقال البغوي:(وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَنْهَاكُمُ اللَّهُ).

والوعظ أيضًا هو الكلام الصادر عن منتهى الجدية والحب والإخلاص لمن أنصحه، سيما إذا كان النصح من الوالد لولده، فإن الأبوة هي من أصدق العلاقات؛ لأن حب الوالد لولده أمر فطري، كما أنه لا يوجد أحد يحب أن يكون غيره أفضل منه وأحسن أكثر من الوالد مع ولده، بل إن الولد كلما اعتلى مراتب صالحة أفضل وأعلى من والده كلما كان ذلك أسعد وأحب إلى قلب والده، ولا يوجد إنسان على وجه الأرض يتمنى أن

يجمع الدنيا بما فيها ومن فيها لغيره إلا الوالد لولده، فما فات الوالد من خير يحب أن يتداركه فى ولده، فحين ينصح الوالد ولده أو يعظه تكون النصيحة أصدق والوعظ أبلغ، فهذا لقمان الحكيم يعظ ابنه، وإنما اعتمد على أسلوب الوعظ؛ لأنه من أنجح الأساليب تأثيرًا فى النفوس، لذا أمر الله به نبيه – ﷺ -، فقال: "وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً" [النساء: ٦٣]، وفى الحديث عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ:"كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الأَيَّامِ، كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا" [متفق عليه]، والمعنى:"يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ"، يتعهدنا مراعيًا أوقات نشاطنا ولا يفعل ذلك دائمًا، "كَرَاهَةَ السَّآمَةِ"، أي: لا يحب أن يصيبنا الملل، بل إن الله – عز وجل – بين لنا أن من مقاصد إنزال الكتب السماوية وعظ المؤمنين وتذكيرهم، قال – تعالى – عن التوراة: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ...﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وقال – سبحانه – عن الإنجيل: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦]، وقال – تعالى – عن القرآن الكريم: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال – تعالى -:"هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ" [آل عمران: ١٣٨]، وقال – تعالى -: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١]، ومما يدل على أهمية أسلوب الوعظ وتأثيره أن الله – تعالى – ذكره بصيغة الحصر فى قوله – سبحانه -: ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ

لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ [طه: ١-٣]، قال الإمام البغوي:(أَيْ: لَكِنْ أَنْزَلْنَاهُ عِظَةً لِمَنْ يَخْشَى، وَقِيلَ: تَقْدِيرُهُ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى، مَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى، ويدل عليه أيضًا قوله – تعالى -: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...﴾ [النحل: ١٢٥]، ففى الآية أمر وتنبيه على استعمال أسلوب الوعظ وأهميته، وبيان ماهية الوعظ المطلوب وهو الوعظ الحسن؛ وهو المقيد والمنضبط بالضوابط الشرعية، والفرق بين الوعظ والتعليم أن الوعظ هو التذكير بشيء معلوم حتى لا ينسى.

مقومات الوعظ المؤثر

١- الإخلاص والصدق: أول شرط من شروط الموعظة الحسنة المؤثرة أن تكون صادقة خالصة؛ لأن الكذب وعدم الإخلاص لا يمكن أن يؤسسا فردًا صالحًا مؤدبًا، والغاية لا تبرر الوسيلة، فبقدر الثقة في الواعظ يكون تأثير الموعظة.

٢- الإقناع: وهو أن يحاول الواعظ أن يقنع من يعظه بالقضية التي يطرحها بحيث يتقبلها عن رضى وقناعة لا عن حياء وتقليد، مستخدمًا ما أمكنه وما تيسر له من وسائل وأساليب، ومنها: التصريح، والتلميح والتعريض، والصرامة، واللين، والإخبار، والطلب وضرب المثل ، والتذكير بماضي السلف الصالح، وبالحروب والكوارث والآفات، وبالنعم والآلاء والانتصارات، وبالتخويف من الله تعالى، وبسوء الخاتمة، والحث على التعجيل بالخير، والتحذير من التسويف،

والايجاز بالبسط والمزاح والإطناب، والتلطف المُلح، والحِكَم، والشعر الحسن، وخلو الحجة من السب والتعيير، وذكر ما في الموعوظ من خير وخصال طيبة.. إلى غير ذلك.

٣- الابتعاد عن أسباب الملل: كطول الموعظة، أو تكرارها، أو إلقائها بأسلوب جاف، أو في غير محلها؛ لأن كل ذلك يصيب المستمع بالملل والسآمة، وهو ما يجعل أثر الموعظة ضعيفًا، بل قد ينعكس أثرها إلى عكس ما أراده الواعظ؛ ولهذا كان من سنة الرسول - ﷺ - لخبرته بالنفوس يتعهد أصحابه بالنصح والتذكير، أيامًا وأيامًا، ولا يُكثِر عليهم؛ لئلا يملوا، كما فى حديث ابن مسعود – رضي الله عنه -، قال:"كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الأَيَّامِ، كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا" [متفق عليه]، كذا كان صحابته الذين تربوا على يديه يمتثلون ذلك ويتواصون به، فعَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ:"حَدِّثِ النَّاسَ كُلَّ جُمُعَةٍ مَرَّةً، فَإِنْ أَبَيْتَ فَمَرَّتَيْنِ، فَإِنْ أَكْثَرْتَ فَثَلاَثَ مِرَارٍ، وَلاَ تُمِلَّ النَّاسَ هَذَا القُرْآنَ، وَلاَ أُلْفِيَنَّكَ تَأْتِي القَوْمَ وَهُمْ فِي حَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِهِمْ، فَتَقُصُّ عَلَيْهِمْ، فَتَقْطَعُ عَلَيْهِمْ حَدِيثَهُمْ فَتُمِلُّهُمْ، وَلَكِنْ أَنْصِتْ، فَإِذَا أَمَرُوكَ فَحَدِّثْهُمْ وَهُمْ يَشْتَهُونَهُ، فَانْظُرِ السَّجْعَ مِنَ الدُّعَاءِ فَاجْتَنِبْهُ، فَإِنِّي عَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - وَأَصْحَابَهُ لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا ذَلِكَ"، يَعْنِي لاَ يَفْعَلُونَ إِلَّا ذَلِكَ الِاجْتِنَابَ [البخاري].

٤- الموازنة بين الأساليب: كالتبشير والإنذار، والترهيب والترغيب، والوعد والوعيد، بحيث لا يغلب الواعظ أحد الأسلوبين على الآخر، بل يمزج

بينهما، وقد علمنا الله – عز وجل – ذلك فى القرآن الكريم، كما فى قوله – تعالى -:﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩- ٥٠]، وقوله – سبحانه -:﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

٥- اليسر: وعدم التكلف في الموعظة سواء في طريقة إلقائها، أو أسلوبها، أو المحل الذي تلقى فيه.

٦- انتهاز المواقف، والأحداث، وإلقاء الموعظة التى تتناسب معها.

الوصية الأولى: "لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ"

قال الله – تعالى -: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، قال الإمام البقاعي:(ولما كان الإنسان لا يعرف حكمة الحكيم إلا بأقواله وأفعاله، ولا صدق الكلام وحكمته إلا بمطابقته للواقع، فكان التقدير: اذكر ما وصفنا به لقمان لتنزل عليه ما تسمع من أحواله وأفعاله في توفية حق الله وحق الخلق الذي هو مدار الحكمة، عطف عليه قوله:"وإذ"، أي: واذكر بقلبك لتتعظ وبلسانك لتعظ غيرك - بما أنك رسول - ما كان حين "قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ"، ما يدل على شكره في نفسه وأمره به لغيره، فإنه لا شكر يعدل البراءة من الشرك، وفيه حث على التخلق بما مدح به لقمان بما يحمل على الصبر والشكر والمداومة على كل خير، وعلى تأديب الولد، بسوق الكلام على وجه يدل على تكرير وعظه، فقال:"وَهُوَ يَعِظُهُ"، أي: يوصيه بما ينفعه ويرقق قلبه ويهذب نفسه، ويوجب له الخشية والعدل، ولما كان أصل توفية حق الحق تصحيح الاعتقاد وإصلاح العمل، وكان الأول أهم قدمه فقال:" يَا بُنَيَّ"، فخاطبه بأحب ما يخاطب به، مع إظهار الترحم والتحنن والشفقة، ليكون ذلك أدعى لقبول النصح [نظم الدرر]، فقوله:" يَا بُنَيَّ" يسميه العلماء تصغير التلطيف والترقيق، قال الإمام القرطبي:(وَقَوْلُهُ:"يَا بُنَيَّ" لَيْسَ هُوَ عَلَى حَقِيقَةِ التَّصْغِيرِ وَإِنْ كَانَ عَلَى لَفْظِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ عَلَى وَجْهِ التَّرْقِيقِ)، فهذا من محبة الوالد وشفقته على ولده.

فقال:"يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ..."، ذكره بالقضية الأولى فى هذا الوجود من خلال تحذيره من الشرك، فالتوحيد هو أصل الأصول وقضية القضايا، من أجله خلق الله الخلق وأرسل الرسل وأنزل الكتب، قال – تعالى -:﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال – سبحانه -: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]، وقال – تعالى -: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال – تعالى -:﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقال – سبحانه -: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ ...﴾ [محمد: ١٩]، هذه هي قضية القضايا يذكر بها لقمان ولده حين ينهاه عن الشرك، قائلًا له:" يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ..."، قال الله – عز وجل -: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ...﴾ [النساء: ٣٦]، وقال – تعالى -: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرى إِثْماً عَظِيماً﴾ [النساء: ٤٨]، وقال – سبحانه -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾ [النساء: ١١٦]، وقال – تعالى -: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقالَ الْمَسِيحُ يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْواهُ النَّارُ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال – جل وعلا -: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ

إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال – تعالى -: ﴿... وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، وقال – تعالى -: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦]، وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - عَلَى حِمَارٍ، يُقَالُ لَهُ: عُفَيْرٌ، قَالَ: فَقَالَ:"يَا مُعَاذُ، تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟"، قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ:"فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا"، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ، قَالَ:"لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا" [متفق عليه].

وإنما بدأ لقمان وعظه لابنه بنهيه عن الشرك؛ لأنه مصدر الشرور والمنكرات، وهو ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض؛ لذا وصفه بقوله:"إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ"، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّنَا لاَ يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ:﴿لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ "لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] بِشِرْكٍ، أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لِابْنِهِ:"يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ" [البخاري]، **والشرك نوعان:**

النوع الأول: شرك أكبر، واضح ظاهر جليّ كمن يعبد حجرًا أو شجرًا

أو شمسًا ونحو ذلك مما يعبد من دون الله – عز وجل -، قال الله – تعالى -:"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذابِ" [البقرة: ١٦٥]، وقال – جل وعلا -: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لَا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، وعن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه - قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ - ﷺ -: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟، قَالَ:"أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ" [متفق عليه]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه -، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ:"اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟، قَالَ:"الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ" [متفق عليه]، وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ - رضي الله عنه -، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -:"أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟" ثَلاَثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ:"الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ - وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ – "أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ"، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ" [متفق عليه].

النوع الثاني: شرك أصغر، ويسمّى الشرك الخفيّ وخطورته كما يبدو من اسمه أنه خفيّ، أي يخفى على كثير من الناس، لذا حذرنا منه النبي – ﷺ -، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَنَحْنُ

نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَقَالَ:"أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟"، قَالَ: قُلْنَا: بَلَى، فَقَالَ:"الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ" [ابن ماجة]، وعن أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيّ، قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - ذَاتَ يَوْمٍ، فَقَالَ:"أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ"، فَقَالَ لَهُ مَنْ شَاءَ أَنْ يَقُولَ: وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ:"قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ" [أحمد وابن أبي شيبة]، وللشرك الأصغر صور متعددة يحسن بنا أن نقف عليها لنحذرها ونتوقاها، ومنها:

١- الرياء، وهو من أظهر صور الشرك الأصغر وأخطرها؛ لذا حذرنا النبي – ﷺ – من الوقوع فيه فقال:"إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ"، قَالُوا:وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟، قَالَ:"الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً" [مسند أحمد]، وعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:"إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي، الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، أَمَا إِنِّي لَسْتُ أَقُولُ يَعْبُدُونَ شَمْسًا، وَلَا قَمَرًا، وَلَا وَثَنًا، وَلَكِنْ أَعْمَالًا لِغَيْرِ اللَّهِ، وَشَهْوَةً خَفِيَّةً" [ابن ماجة]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -:"قَالَ اللهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ" [مسلم]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -:"مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ

رَاءَى رَاءَى اللهُ بِهِ" [متفق عليه]، وعَنْ أَبِي سَعْدِ بْنِ أَبِي فَضَالَةَ الْأَنْصَارِيِّ، وَكَانَ مِنَ الصَّحَابَةِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:"إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، نَادَى مُنَادٍ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ لِلَّهِ، فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ" [ابن ماجة]، وعَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ أَبِي عُبَيْدَةَ، فَذَكَرُوا الرِّيَاءَ، فَقَالَ رَجُلٌ يُكْنَى بِأَبِي يَزِيدَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو، يَقُولُ: قَالَ: رَسُولُ اللهِ - ﷺ -:"مَنْ سَمَّعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ سَمَّعَ اللهُ بِهِ سَامِعَ خَلْقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَحَقَّرَهُ وَصَغَّرَهُ" [أحمد]، وسميّ الرياء شركًا خفيًّا؛ لأن صاحبه يظهر أن عمله لله وقد قصد به غيره أو أشركه فيه، ويسمى أيضًا شرك السرائر، فعَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:"إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ السَّرَائِرِ"، قَالُوا: وَمَا شِرْكُ السَّرَائِرِ؟، قَالَ:"أَنْ يَقُومَ أَحَدُكُمْ يُزَيِّنُ صَلَاتَهُ جَاهِدًا لِيَنْظُرَ النَّاسُ إِلَيْهِ، فَذَلِكَ شِرْكُ السَّرَائِرِ" [ابن أبي شيبة وابن خزيمة والبيهقي]، وسميّ بشرك السرائر لأنه أمر خفيّ فى سريرة الإنسان وداخله لا يعلمه إلا الله – تعالى -، وإنما يفتضح ويظهر يوم القيامة إن لم يتب منه صاحبه، قال – تعالى -:﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]، وعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - يَقُولُ:"مَنْ صَلَّى يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ صَامَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَصَدَّقَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ" [أحمد والطبراني]، وعن أبي هريرة – رضي الله عنه - قَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -:"أَنَّ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى العِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ، فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ

جَمَعَ القُرْآنَ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ المَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ فُلَانًا قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ، وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ المَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ – تَعَالَى -: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ، وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: فِي مَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ اللَّهُ – تَعَالَى - لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَرِيءٌ , فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ "، ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى رُكْبَتِي فَقَالَ:"يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ القِيَامَةِ" [الترمذي وابن خزيمة وابن حبان]، فهذا الحديث يبين لنا خطورة الرياء.

٢- ومن صور الشرك الأصغر، الحلف بغير الله – تعالى -، كالحلف بالنبي والكعبة والآباء والشرف والجاه والأمانة والنعمة والذمة والطلاق وغيرها، فعَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ، قَالَ: سَمِعَ ابْنُ عُمَرَ، رَجُلًا يَحْلِفُ: لَا وَالْكَعْبَةِ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ:"مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ" [أبو داود والترمذي]، وجاء رجل إلى ابن عمر –

رضي الله عنهما - فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَعَلَيَّ جُنَاحٌ أَنْ أَحْلِفَ بِالْكَعْبَةِ؟ قَالَ: وَلِمَ تَحْلِفُ بِالْكَعْبَةِ؟ إِذَا حَلَفْتَ بِالْكَعْبَةِ فَاحْلِفْ بِرَبِّ الْكَعْبَةِ، فَإِنَّ عُمَرَ كَانَ إِذَا حَلَفَ قَالَ: كَلَّا وَأَبِي فَحَلَفَ بِهَا يَوْمًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ - ﷺ -، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -:"لَا تَحْلِفْ بِأَبِيكَ، وَلَا بِغَيْرِ اللهِ، فَإِنَّهُ مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ" [أحمد]، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ، وَهُوَ يَسِيرُ فِي رَكْبٍ، يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَقَالَ:"أَلاَ إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ" [متفق عليه]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:"لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَلَا بِأُمَّهَاتِكُمْ، وَلَا بِالْأَنْدَادِ، وَلَا تَحْلِفُوا إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا تَحْلِفُوا بِاللَّهِ إِلَّا وَأَنْتُمْ صَادِقُونَ" [أبو داود]، وعَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: سَمِعَ النَّبِيُّ - ﷺ - رَجُلًا يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَقَالَ:"لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللَّهِ فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِاللَّهِ، فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ" [ابن ماجة]، وعَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ:"مَنْ حَلَفَ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الإِسْلاَمِ كَاذِبًا مُتَعَمِّدًا، فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ عُذِّبَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ" [متفق عليه]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:"مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: وَاللَّاتِ وَالعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ أُقَامِرْكَ، فَلْيَتَصَدَّقْ" [متفق عليه]، وعَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ، قَالَ: كُنَّا مَعَ عُمَرَ فِي حَلْقَةٍ، فَسَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: لَا وَأَبِي، فَرَمَاهُ بِالْحَصَى، وَقَالَ: إِنَّهَا كَانَتْ يَمِينِي، فَنَهَانِي النَّبِيُّ - ﷺ - عَنْهَا، وَقَالَ:"إِنَّهَا شِرْكٌ" [ابن أبي شيبة]، وعَنِ ابْنِ

بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:"مَنْ حَلَفَ بِالْأَمَانَةِ فَلَيْسَ مِنَّا" [أبو داود]، وعن عَبْد اللَّهِ بْن بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:"مَنْ حَلَفَ، فَقَالَ: إِنِّي بَرِيءٌ مِنَ الْإِسْلَامِ، فَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَلَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْإِسْلَامِ سَالِمًا " [أبو داود].

٣- ومن صور الشرك الأصغر: ما يجرى على ألسنة البعض من قولهم:ما شاء الله وشئت، وأنا متوكل على الله وعليك، وما لي إلا الله وأنت، وهذا من الله ومنك، وأنا تارك الأمر على الله وعليك، والله لى فى السماء وأنت لى فى الأرض، ونحو ذلك من هذه الألفاظ التى تخالف العقيدة وتوقع العبد فى الشرك والعياذ بالله، وقد حذرنا النبي – ﷺ – من ذلك، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ قُتَيْلَةَ، امْرَأَةٍ مِنْ جُهَيْنَةَ: أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ - ﷺ - فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُنَدِّدُونَ، وَإِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ - ﷺ - إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَيَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ شِئْتَ" [أبو داود]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:"إِذَا حَلَفَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَقُلْ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ شِئْتَ" [ابن ماجة]، وعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَأَى فِي النَّوْمِ أَنَّهُ لَقِيَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَقَالَ: نِعْمَ الْقَوْمُ أَنْتُمْ لَوْلَا أَنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ - ﷺ -، فَقَالَ:"أَمَا وَاللَّهِ، إِنْ كُنْتُ لَأَعْرِفُهَا لَكُمْ، قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ" [ابن ماجة]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ -, فَحَدَّثَهُ بِبَعْضِ الْكَلَامِ، فَقَالَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ:"جَعَلْتَنِي

لِلَّهِ عَدِيلًا؟ لَا بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ" [أحمد وابن أبي شيبة]، فقول النبي - ﷺ -:"وَلَكِنْ لِيَقُلْ: مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ شِئْتَ" قاعدة تجرى عليها جميع الألفاظ التى ذكرناها ونحوها، فيقال: ما شاء الله ثم شئت، وأنا متوكل على الله ثم عليك، وما لي إلا الله ثم أنت، وهذا من الله ثم منك، وأنا تارك الأمر على الله ثم عليك، وهكذا فيسلم الإنسان من الوقوع فى الشرك.

٤- ومن صور الشرك الأصغر: تعليق التمائم، وهي فى الأصل خرزة كانت تعلّق على الأطفال يتقون بها من العين ونحوها، وتطلق على كل ما يعلّق سواء على المرضى أو الأطفال أو البيوت أو غيرها؛ لدفع البلاء أو رفعه، وكذلك ما يسمى بالحظاظات التى يلبسها الشباب بدعوى أنها تجلب الحظ، وهذا من التشبه بغير المسلمين، وكذلك ما يسمى بالتِّولَة وهي شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته، فعَنْ زَيْنَب، امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ:"إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ"، قَالَتْ: قُلْتُ:لِمَ تَقُولُ هَذَا؟ وَاللَّهِ لَقَدْ كَانَتْ عَيْنِي تَقْذِفُ وَكُنْتُ أَخْتَلِفُ إِلَى فُلَانٍ الْيَهُودِيِّ يَرْقِينِي فَإِذَا رَقَانِي سَكَنَتْ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: إِنَّمَا ذَاكَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ كَانَ يَنْخُسُهَا بِيَدِهِ فَإِذَا رَقَاهَا كَفَّ عَنْهَا، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكِ أَنْ تَقُولِي كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ:"أَذْهِبِ الْبَأْسَ رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا" [أبو داود]، وعَنْ يَحْيَى بْنِ الْجَزَّارِ، قَالَ: دَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ عَلَى امْرَأَةٍ وَفِي عُنُقِهَا شَيْءٌ مُعَوَّذٌ، فَجَذَبَهُ فَقَطَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ أَصْبَحَ آلُ عَبْدِ اللَّهِ أَغْنِيَاءَ أَنْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا، ثُمَّ

قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ:"إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ، وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ"، قَالُوا:يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، هَذِهِ الرُّقَى وَالتَّمَائِمُ قَدْ عَرَفْنَاهَا، فَمَا التِّوَلَةُ؟ قَالَ:"شَيْءٌ يَصْنَعُهُ النِّسَاءُ يَتَحَبَّبْنَ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ" [ابن حبان]، وعَنْ يَزِيد بْنِ أَبِي حَبِيبٍ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا الْخَيْرِ، يَقُولُ: سَمِعْتُ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ، يَقُولُ فِي التَّمَائِمِ:"إِنَّهَا أَيْنَمَا وُضِعَتْ مِنَ الْإِنْسَانِ فَإِنَّ مَوْضِعَهَا شِرْكٌ" [الجامع لابن وهب]، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هُبَيْرَةَ، أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ كَانَ يَقُولُ: "تَعْلِيقُ التَّمَائِمِ شُعْبَةٌ مِنْ شُعَبِ الْجَاهِلِيَّةِ" [الجامع لابن وهب]، وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، يَرْفَعُهُ قَالَ:"مَنْ عَلَّقَ التَّمَائِمَ، وَعَقَدَ الرُّقَى فَهُوَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ الشِّرْكِ" [مسند ابن الجعد]، وعَنْ أَبِي الْحَسَنِ، قَالَ: كَانَ أَبُو الْحَسَنِ يَعْنِي عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - يَقُولُ:"إِنَّ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ التَّمَائِمِ وَالرُّقَى شِرْكٌ بِاللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، فَاجْتَنِبُوهَا" [السنة لابن الخلال]، وعن عُقْبَة بْن عَامِرٍ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ:"مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللَّهُ لَهُ وَمَنْ عَلَّقَ وَدَعَةً فَلَا وَدَعَ الله له" [ابن حبان]، وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - رَأَى فِي يَدِ رَجُلٍ حَلَقَةً، فَقَالَ:"مَا هَذَا؟"، قَالَ: مِنَ الْوَاهِنَةِ، قَالَ:"مَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا انْبِذْهَا عَنْكَ، فَإِنَّكَ إِنْ تَمُتْ وَهِيَ عَلَيْكَ وُكِلْتَ عَلَيْهَا" [ابن حبان]، وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - أَقْبَلَ إِلَيْهِ رَهْطٌ، فَبَايَعَ تِسْعَةً وَأَمْسَكَ عَنْ وَاحِدٍ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، بَايَعْتَ تِسْعَةً وَتَرَكْتَ هَذَا؟ قَالَ:"إِنَّ عَلَيْهِ تَمِيمَةً" فَأَدْخَلَ يَدَهُ فَقَطَعَهَا، فَبَايَعَهُ، وَقَالَ:"مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ" [أحمد]، ويلحق بذلك أيضًا الطيرة (التشاؤم بالشيء) والكهانة والسحر، فعَنْ

عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ:"الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، ثَلَاثًا، وَمَا مِنَّا إِلَّا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ" [أبو داود]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:"كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - يُعْجِبُهُ الْفَأْلُ الْحَسَنُ، وَيَكْرَهُ الطِّيَرَةَ" [ابن ماجة]، وعَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أُمَيَّةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -:"ثَلَاثٌ لَا يَعْجَزُهُنَّ ابْنُ آدَمَ: الطِّيَرَةُ، وَسُوءُ الظَّنِّ، وَالْحَسَدُ، قَالَ: فَيُنْجِيكَ مِنَ الطِّيَرَةِ أَلَّا تَعْمَلَ بِهَا، ويُنْجِيكَ مِنْ سُوءِ الظَّنِّ أَلَّا تَتَكَلَّمَ بِهِ، ويُنْجِيكَ مِنَ الْحَسَدِ أَلَّا تَبْغِي أَخَاكَ سُوءًا" [جامع معمر بن راشد]، وعَنْ عَلِيّ، قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ - ﷺ -:"يَا عَلِيُّ أَسْبِغِ الْوُضُوءَ وَإِنْ شَقَّ عَلَيْكَ، وَلا تَأْكُلِ الصَّدَقَةَ، وَلا تُنْزِ الْحَمِيرَ عَلَى الْخَيْلِ، وَلا تُجَالِسْ أَصْحَابَ النُّجُومِ" [أحمد]، والنهي عن مجالسة أصحاب النجوم يريد به الذين يعتقدون تأثير الكواكب في حياة الإنسان في سعادته وشقاوته، وغناه وفقره، وهو ضرب من الكهانة والسحر، وعَنْ نَافِعٍ، عَنْ صَفِيَّةَ، عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ - ﷺ - عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ:"مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً" [مسلم]، وعن عَبْد اللَّهِ بن مَسْعُودٍ:"مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ" [مسند ابن الجعد]، وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:"لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ عَقَدَ عُقْدَةً - أَوْ قَالَ: مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً - وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ - ﷺ -" [البزار]، وعَنْ قَتَادَةَ، أَنَّ كَعْبًا، قَالَ: قَالَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ -:"لَيْسَ مِنْ عِبَادِي مَنْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، أَوْ كَهِنَ أَوْ كُهِنَ

لَهُ، أَوْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، لَكِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ آمَنَ وَتَوَكَّلَ عَلَيَّ" [البيهقي في الشعب].

هذه بعض صور الشرك الأصغر، فاعتقاد النفع والضر من المخلوق على أي صورة وفي أي صورة هو شرك بالله – عز وجل – فإن النافع والضار هو الله – تعالى – وحده، فالواجب على المسلم أن يحذر كل الحذر من الوقوع في الشرك صغيره وكبيره، وأن يكثر من دعائه لربه أن ينجيه منه، نسأل الله السلامة.

الوصية الثانية: "وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً"

قال الله – تعالى -: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤، ١٥]، هذه واحدة من أهم وأعظم وآكد وصايا القرآن الكريم، وقبل أن ندخل إلى تفاصيل هذه الوصية العظيمة يجب أن نشير إلى أن العلماء قد اختلفوا فى هاتين الآيتين، هل هما من كلام لقمان أم لا؟ على قولين:

القول الأول: أنهما كلام مستأنف، أي: ليس من كلام لقمان جيء به على سبيل الاعتراض في أثناء وصية لقمان لابنه؛ لبيان سمو منزلة الوالدين ولأن القرآن الكريم كثيرًا ما يقرن بين الأمر بوحدانية الله – تعالى – وعبادته وبين الأمر بالإحسان إلى الوالدين، كما فى قوله – تعالى -:﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً ...﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله – سبحانه -: ﴿وَقَضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً ...﴾ [الإسراء: ٢٣].

القول الثانى: أنهما من جملة ما وصّى به لقمان ابنه، وأخبر الله – تعالى – به عنه، والأقرب إلى الصواب أن هذه الوصية ليست من كلام لقمان، وإنما جاءت على سبيل الاعتراض فى أثناء وصايا لقمان لابنه؛ لبيان

سمو منزلة الوالدين، ولعادة القرآن فى الجمع بين الأمر بوحدانية الله – تعالى – وعبادته وبين الأمر بالإحسان إلى الوالدين.

وعلى كلٍّ فهي وصية هامة عظيمة ما أحوج الكثيرين إليها اليوم وخاصة الشباب، نسأل الله أن يصلح شباب المسلمين.

تعالوا بنا أحبتى لنعيش مع هذه الوصية العظيمة التى نرى من خلالها عظمة القرآن الكريم فى عرض القضايا العظيمة، ولما لا؟ إنه كتاب الله وكفى.

يقول الله – عز وجل -:﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ ...﴾، الوصية معناها: العهد بالشيء الهام، وحين يأتي التوجيه بصيغة الوصية، فإنما يدل ذلك على خطورة وأهمية الموضوع الذي تتناوله الوصية، وأهمية استيعاب المتلقي لبنودها، فالوصية لا تكون بالتوافه ولا بالصغائر من الأمور، وإنما تكون بالأمور الهامة العظيمة، ومما يدل على عظمة هذه الوصية وأهميتها أن الله – تعالى – أوصى بها بنى الإنسان من لدن آدم إلى قيام الساعة، فهي أحد الوصايا المسجلة فى جميع الشرائع السماوية، قال الله – تعالى -:﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً ...﴾ [البقرة: ٨٣]، ومدح الله – تعالى – أنبيائه – عليهم السلام – ببرهم وإحسانهم إلى الوالدين فقال – تعالى – عن نبيه يحيى – عليه السلام -:﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤]، وحكى الله – تعالى – عن نبيه عيسى – عليه السلام – قوله:﴿وَبَرًّا بِوالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي

جَبَّاراً شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢]، وذكر الله – عز وجل – إحسان خليله إبراهيم – عليه السلام – لأبيه بصورة عملية رائعة حينما توعده بقوله:﴿قالَ أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦]، فكان ردّ الخليل – عليه السلام -:"قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا" [مريم: ٤٧]، وفى حديث أويس بن عامر ما يدل على قدر هذه الوصية وقدر من يقوم بها، فقد قال النبي – ﷺ – فى وصف أويس – رضي الله عنه -:"يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ، مِنْ مُرَادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ، ..." الحديث [مسلم]، فقوله – تعالى -:"وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ ..."، أي: أمرناه وعهدنا إليه، وجعلنا ذلك وصية عنده سنسأله عن القيام بها، وهل حفظها أم لا؟.

قوله – تعالى -:"وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ ..."، إذا تأملنا هذه الوصية فى القرآن الكريم فإننا نقف على عدة أمور، **الأمر الأول:** أنها جاءت على ثلاث صور:

الصورة الأولى: ذكر فيها لفظ "إحسانًا"، وهذه وردت فى القرآن الكريم خمس مرات، وهي:

قوله – تعالى -: ﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً ...﴾ [البقرة: ٨٣]، وقوله – سبحانه -:﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً ...﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله –

جل وعلا -:﴿قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً ...﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله – عز وجل -:﴿وَقَضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً ...﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقوله – جل جلاله -: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً ... ﴾ [الأحقاف: ١٥].

الصورة الثانية: ذكر فيها لفظ "حسنًا"، وهذه وردت مرة واحدة فى قوله – تعالى -:"وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" [العنكبوت: ٨].

الصورة الثالثة: لم يذكر فيها لا "إحسانًا" ولا "حسنا"، وهذه وردت مرة واحدة فى الآية التى معنا من سورة لقمان قال الله – عز وجل -: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ ...﴾ [لقمان: ١٤].

إذا تأملنا هذه الصور والآيات التى وردت فى كل واحدة منها نجد أن كل صورة من هذه الصور الثلاث لها مدلولها الخاص، ففى الصورة الأولى التى ذكر فيها لفظ "إحسانًا" نجد أن القرآن يتحدث عن أبوين مؤمنين، وأما فى الصورة الثانية والثالثة فهو يتحدث عن أبوين مشركين، فاستعمل لفظ "إحسانًا" الذى هو أعلى من "حسنًا" مع الأبوين المؤمنين، فاختصهما بمزيد من الإحسان، بينما استعمل لفظ "حسنًا" مع الأبوين المشركين وكذلك استعمله مع عامة الناس، فقال:﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ [البقرة: ٨٣]، فإنه لا يستوى المؤمن والمشرك، كما لا يستوى الوالدان

وعامة الخلق.

الأمر الثانى: أن الله – تعالى – قال:"وبالوالدين"، ولم يقل:"إلى الوالدين"، قال أهل العلم: أن الباء تفيد الالتصاق، أي أن الإحسان ملتصق بالوالدين لا ينقطع عنهما بحال حتى وإن كانا مشركين، وأما (إلى) فإنها تفيد انتهاء الغاية، أي أن الإحسان قد ينتهى أو ينقطع عنهما لسبب ما، وهذا المعنى نجده في حديث النبي – ﷺ – وقد جاءه رجل يسأله:"يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ بَقِيَ مِنْ بِرِّ أَبَوَيَّ شَيْءٌ أَبَرُّهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا؟ قَالَ:"نَعَمْ الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لَا تُوصَلُ إِلَّا بِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا" [رواه أبو داود وأحمد والبخاري فى الأدب المفرد]، أي أن بر الوالدين والإحسان إليهما لا ينقطع ولا ينتهى، بل هو ملتصق بهما حتى بعد موتهما، فكانت "بالوالدين" أبلغ وأقوى فى الأمر من "إلى الوالدين"، والله أعلم.

الأمر الثالث: أن الله – تعالى – قال:﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ ...﴾، الله – عز وجل – فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم يذكر جهد الأم دون الأب كما فى هذه الآية، وكما فى سورة الأحقاف حيث يقول الله – سبحانه -:﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً ...﴾ [الأحقاف: ١٥]، فلماذا يذكر جهد الأم دون الأب؟، ذكر العلماء لذلك سببين:

الأول: أن جهد وعمل الأم وجد فى زمن ليس للولد فيه إدارك [تفسير

الشعراوي]، فإحسان الأم للولد متقدم على إحسان الولد، أي أن الولد لم يدرك ما بذلته الأم من جهد وعمل لأجله بخلاف الأب، فإن الولد يرى ويدرك ما يفعله الأب لأجله، فكان من الإنصاف والعدل أن يذكّر بجهد أمه، قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره:(وَإِنَّمَا يَذْكُرُ - تَعَالَى - تربيةَ الْوَالِدَةِ وَتَعَبَهَا وَمَشَقَّتَهَا فِي سَهَرِهَا لَيْلًا وَنَهَارًا، ليُذكّر الْوَلَدَ بِإِحْسَانِهَا الْمُتَقَدِّمِ إِلَيْهِ).

الثانى: أن ذكر جهد وعمل الأم يستدعى من الولد مزيدًا من الإحسان لها؛ لضعفها وحاجتها إليه بخلاف الأب، وهذا المعنى نجده فى حديث النبي - ﷺ - لما قيل له:"يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ:"أُمُّكَ" قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ:"ثُمَّ أُمُّكَ" قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ:"ثُمَّ أُمُّكَ" قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ:"ثُمَّ أَبُوكَ" [متفق عليه]، قال الإمام النووي فى شرحه على صحيح مسلم:(قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَسَبَبُ تَقْدِيمِ الْأُمِّ كَثْرَةُ تَعَبِهَا عَلَيْهِ وَشَفَقَتُهَا وَخِدْمَتُهَا وَمُعَانَاةُ الْمَشَاقِّ فِي حَمْلِهِ ثُمَّ وَضْعِهِ ثُمَّ إِرْضَاعِهِ ثُمَّ تَرْبِيَتِهِ وَخِدْمَتِهِ وَتَمْرِيضِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ).

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور:(وَإِنَّمَا وَقَعَ تَعْلِيلُ الْوِصَايَةِ بِالْوَالِدَيْنِ بِذِكْرِ أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ بِأَحَدِهِمَا وَهِيَ الْأُمُّ اكْتِفَاءً بِأَنَّ تِلْكَ الْحَالَةَ تَقْتَضِي الْوِصَايَةَ بِالْأَبِ أَيْضًا لِلْقِيَاسِ فَإِنَّ الْأَبَ يُلَاقِي مَشَاقَّ وَتَعَبًا فِي الْقِيَامِ عَلَى الْأُمِّ لِتَتَمَكَّنَ مِنَ الشُّغْلِ بِالطِّفْلِ فِي مُدَّةِ حَضَانَتِهِ ثُمَّ هُوَ يَتَوَلَّى تَرْبِيَتَهُ وَالذَّبَّ عَنْهُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَيَسْتَغْنِيَ عَنِ الْإِسْعَافِ كَمَا قَالَ - تَعَالَى

-:﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً﴾ [الْإِسْرَاء: ٢٤]، فَجَمَعَهُمَا فِي التَّرْبِيَةِ فِي حَالِ الصِّغَرِ مِمَّا يَرْجِعُ إِلَى حِفْظِهِ وَإِكْمَالِ نَشْأَتِهِ، فَلَمَّا ذُكِرَتْ هُنَا الْحَالَةُ الَّتِي تَقْتَضِي الْبِرَّ بِالْأُمِّ مِنَ الْحَمْلِ وَالْإِرْضَاعِ كَانَتْ مُنَبِّهَةً إِلَى مَا لِلْأَبِ مِنْ حَالَةٍ تَقْتَضِي الْبِرَّ بِهِ عَلَى حِسَابِ مَا تَقْتَضِيهِ تِلْكَ الْعِلَّةُ فِي كِلَيْهِمَا قُوَّةً وَضَعْفًا، وَلَا يَقْدَحُ فِي الْقِيَاسِ التَّفَاوُتُ بَيْنَ الْمَقِيسِ وَالْمَقِيسِ عَلَيْهِ فِي قُوَّةِ الْوَصْفِ الْمُوجِبِ لِلْإِلْحَاقِ. وَقَدْ نَبَّهَ عَلَى هَذَا الْقِيَاسِ تَشْرِيكُهُمَا فِي التَّحَكُّمِ عَقِبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: "أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ"، "وَقَوْلِهِ وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً"، وَحَصَلَ مِنْ هَذَا النَّظْمِ الْبَدِيعِ قَضَاءُ حَقِّ الْإِيجَازِ) [التحرير والتنوير].

لكننا نجد أن القرآن ذكر جهد الأب مقرونًا مع الأم فى آية واحدة فى قول الله – عز وجل -:﴿ وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً﴾ [الإسراء: ٢٤]، وهذه الآية بها عدة إشارات هامة:

أولها: أن دور الأب ومسئوليته الحقيقية هي التربية.

ثانيها: أن هذه التربية يجب أن تكون فى الصغر، فإنه كما قيل: (التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر)، يقول الإمام الغزالي:(إنّ قلب الطّفل فارغ صاف، له ميل فطري لتلقّي كلّ شيء، والميل إلى كلّ شيء)، وقال ابن سينا:(عند ولادة الطّفل تولد معه جملة من القدرات، بيد أنّه يتعيّن تطوير هذه القدرات)، بمعنى أنّ هذه القابليات إذا وجّهت نحو

الخير والدّين نشأ الطّفل مؤمنا، أمّا إذا وجّهت نحو الشّر والإلحاد فإنّ الطّفل ينشأ غير مؤمن، ويقول بديع الزّمان:(إنّ الطّفل إذا لم يتلق في طفولته دروسا إيمانيّة حيّة فإنّ نفسه بعد ذلك يصبح من العسير عليها تقبّل الإسلام وأركان الإيمان، بل إنّ هذه الصّعوبة تصل إلى درجة أن يصبح الواحد في علاقته بتقبّل الإسلام شأنه شأن غير المسلم).

ثالثها: أن التربية الصحيحة سبب للإحسان حتى وإن كان الوالدين من غير النسب، فجعل الله التربية وحدها سبب للبر والإحسان للوالدين، بل إن الإحسان بسبب التربية أقوى من الإحسان لمجرد النسب؛ لأن التربية هي الأثر الباقى الممتد فى الولد إلى أن يموت، وربما يمتد أثر هذه التربية إلى من بعده من الأجيال المتعاقبة.

الأمر الرابع: قال الله – عز وجل -:﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ...﴾، أي: شدة بعد شدة، وقيل:ضعفًا على ضعفٍ، فإن مشقة الحمل تزداد يومًا بعد يومٍ، فيتوالى على الأم الضعف والمشقة، قال الشيخ ابن عاشور:(وَجُمْلَةُ:"حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ" فِي مَوْضِعِ التَّعْلِيلِ لِلْوِصَايَةِ بِالْوَالِدَيْنِ قَصْدًا لِتَأْكِيدِ تِلْكَ الْوِصَايَةِ؛ لِأَنَّ تَعْلِيلَ الْحُكْمِ يُفِيدُهُ تَأْكِيدًا؛ وَلِأَنَّ فِي مَضْمُونِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ مَا يُثِيرُ الْبَاعِثَ فِي نَفْسِ الْوَلَدِ عَلَى أَنْ يَبَرَّ بِأُمِّهِ وَيَسْتَتْبِعَ الْبِرَّ بِأَبِيهِ) [التحرير والتنوير]، ثم قال الله – تعالى -:"وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ"، أي: فطامه من الرضاع، وفى سورة الأحقاف يقول الله – تعالى -:﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً

وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً ...﴾ [الأحقاف: ١٥]، قال الحافظ ابن كثير:(وَقَدِ اسْتَدَلَّ عَلِيٌّ، - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِهَذِهِ الْآيَةِ مَعَ الَّتِي فِي لُقْمَانَ:﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لُقْمَانَ: ١٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [الْبَقَرَةِ: ٢٣٣]، عَلَى أَنَّ أَقَلَّ مُدَّةِ الْحَمْلِ سِتَّةُ أَشْهُرٍ، وَهُوَ اسْتِنْبَاطٌ قَوِيٌّ صَحِيحٌ، وَوَافَقَهُ عَلَيْهِ عُثْمَانُ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -)، وقال الإمام القرطبي: (وَرُوِيَ أَنَّ عُثْمَانَ قَدْ أُتِيَ بِامْرَأَةٍ قَدْ وَلَدَتْ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ، فَأَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْهَا بِالْحَدِّ، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -:لَيْسَ ذَلِكَ عَلَيْهَا، قَالَ اللَّهُ – تَعَالَى -:"وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً" وَقَالَ – تَعَالَى -:﴿وَالْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، فَالرَّضَاعُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ شَهْرًا وَالْحَمْلُ سِتَّةُ أَشْهُرٍ، فَرَجَعَ عُثْمَانُ عَنْ قَوْلِهِ وَلَمْ يَحُدَّهَا) [تفسير القرطبي، الموطأ]، وروى عبد الرازق فى مصنفه عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَبِي حَرْبِ بْنِ الْأَسْوَدِ الدِّيلِيِّ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: رُفِعَ إِلَى عُمَرَ امْرَأَةٌ وَلَدَتْ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ، فَأَرَادَ عُمَرُ أَنْ يَرْجُمَهَا فَجَاءَتْ أُخْتَهَا إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، فَقَالَتْ:إِنَّ عُمَرَ يَرْجُمُ أُخْتِي، فَأَنْشُدُكَ اللَّهَ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ لَهَا عُذْرًا لِمَا أَخْبَرْتَنِي بِهِ، فَقَالَ عَلِيٌّ:"إِنَّ لَهَا عُذْرًا"، فَكَبَّرَتْ تَكْبِيرَةً سَمِعَهَا عُمَرُ مِنْ عِنْدِهِ، فَانْطَلَقَتْ إِلَى عُمَرَ فَقَالَتْ: إِنَّ عَلِيًّا زَعَمَ أَنَّ لِأُخْتِي عُذْرًا، فَأَرْسَلَ عُمَرُ إِلَى عَلِيٍّ: مَا عُذْرُهَا؟ قَالَ:إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يَقُولُ:﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وَقَالَ:"وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا" [الأحقاف: ١٥] فَالْحَمْلُ سِتَّةُ أَشْهُرٍ، وَالْفَصْلُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ شَهْرًا،

قَالَ: فَخَلَّى عُمَرُ سَبِيلَهَا، قَالَ: ثُمَّ إِنَّهَا وَلَدَتْ بَعْدَ ذَلِكَ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ)، قال البيهقي فى السنن الصغير بعد ذكر هذه الرواية:(كَذَا فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ عُمَرُ وَعَلِيٌّ وَأَخْرَجَهُ مَالِكٌ فِي الْمُوَطَّأِ فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)، والحاصل أن العبرة كما قيل بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وأن الآيتين بينتا أن أقل مدة الحمل ستة أشهر.

الأمر الخامس: قيل أن هاتين الآيتين والآية التى فى سورة العنكبوت والتى يقول الله – تعالى – فيها: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨] نزلت فى شأن سعد بن أبى وقاص – رضي الله عنه -، فعن مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ:"نَزَلَتْ فِيَّ أَرْبَعُ آيَاتٍ، فَذَكَّرَهُنَّ"، قَالَ:"وَقَالَتْ أُمُّ سَعْدٍ: أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ اللهُ بِبِرِّ الْوَالِدَةِ؟ وَاللهِ لَا أَطْعَمُ طَعَامًا وَلَا أَشْرَبُ شَرَابًا حَتَّى أَمُوتَ أَوْ تُكْفُرَ بِاللهِ، فَكَانُوا إِذَا أَرَادُوا أَنْ يُطْعِمُوهَا أَوْ يَسْقُوهَا سَجَرُوا فَاهَا بِالْعَصَا، وَأَدْخَلُوا الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ، فَنَزَلَتْ:﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨] ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]" [شعب الإيمان]، وعن مُصْعَبَ بْنَ سَعْدٍ، يُحَدِّثُ، عَنْ أَبِيهِ سَعْدٍ، قَالَ:"أُنْزِلَتْ فِيَّ أَرْبَعُ آيَاتٍ" - فَذَكَرَ قِصَّةً - فَقَالَتْ أُمُّ سَعْدٍ: أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِالبِرِّ، وَاللَّهِ لَا أَطْعَمُ طَعَامًا وَلَا أَشْرَبُ شَرَابًا حَتَّى أَمُوتَ أَوْ تَكْفُرَ، قَالَ: "فَكَانُوا إِذَا أَرَادُوا أَنْ يُطْعِمُوهَا شَجَرُوا فَاهَا"، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةَ ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨]

الْآيَةَ [الترمذي]، وقيل أن آية العنكبوت نزلت فى عياش بن أبى ربيعة أخى أبى جهل لأمه، وقد فعلت أمه معه مثلما فعلت أم سعد، قال الشيخ ابن عاشور:(لَا يَحْسُنُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ جَمْعٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي قَضِيَّةِ إِسْلَامِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَامْتِعَاضِ أُمِّهِ، لِعَدَمِ مُنَاسَبَتِهِ السِّيَاقَ، وَلِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ نَظِيرَ هَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ نَزَلَ فِي ذَلِكَ، وَأَنَّهَا الْمُنَاسِبَةُ لِسَبَبِ النُّزُولِ فَإِنَّهَا أُخْلِيَتْ عَنِ الْأَوْصَافِ الَّتِي فِيهَا تَرْقِيقٌ عَلَى الْأُمِّ بِخِلَافِ هَذِهِ، وَلَا وَجْهَ لِنُزُولِ آيَتَيْنِ فِي غَرَضٍ وَاحِدٍ وَوَقْتٍ مُخْتَلِفٍ) [التحرير والتنوير]، والخلاصة: أن العبرة كما يقولون بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولذا قال ابن عباس – رضي الله عنهما -:"نَزَلَتْ فِي جَمِيعِ الْأُمَّةِ إِذْ لَا يَصْبِرُ عَلَى بَلَاءِ اللَّهِ إِلَّا صِدِّيقٌ" [تفسير القرطبي]، وقال الإمام البغوي فى تفسيره:(وَقِيلَ:نَزَلَتْ هَاتَانِ الْآيَتَانِ فِي سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ وَأُمِّهِ، وَقَدْ مَضَتِ الْقِصَّةُ، وَقِيلَ:الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي حَقِّ كافة الناس).

الأمر السادس: قال الله – عز وجل -:"أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ"، فالشكر لله أولًا لأنه أنشأ من العدم، ثم جعل الوالدين سببًا من أسباب الله فى الوجود، فإذا أردت أن تحسن شكر الله الخالق، فلا بد وأن تحسن شكر الوالدين،قال الإمام القرطبي:(وَقَرَنَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي هَذِهِ الْآيَةِ – يعنى الآية (٨٣) من سورة (البقرة) - حَقَّ الْوَالِدَيْنِ بِالتَّوْحِيدِ؛ لِأَنَّ النَّشْأَةَ الْأُولَى مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَالنَّشْءَ الثَّانِيَ - وَهُوَ التَّرْبِيَةُ- مِنْ جِهَةِ الْوَالِدَيْنِ، وَلِهَذَا قَرَنَ – تَعَالَى - الشُّكْرَ لَهُمَا بِشُكْرِهِ فَقَالَ:"أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ") وقال ابن عباس – رضي الله عنهما -:"ثلاث آيات

نزلت مقرونة بثلاث لا يقبل الله منها واحدة بغير قرينتها إحداها: قوله – تعالى -:"أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ" [سورة آل عمران: ٣٢]، فمن أطاع الله ولم يطع الرسول لم يقبل منه، الثانية: قوله – تعالى -:﴿أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [سورة البقرة: ١١٠]، فمن صلى ولم يزكِّ لم يقبل منه، الثالثة: قوله – تعالى -:"أَنِ اشْكُرْ لِيَ وَلِوَالِدَيْكَ" [سورة لقمان: ١٤]، فمن شكر الله ولم يشكر والديه لم يقبل منه" [الكبائر للذهبي]، وقَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -:"رِضَا اللهِ فِي رِضَا الْوَالِدَيْنِ، وَسَخَطُ اللهِ فِي سَخَطِ الْوَالِدَيْنِ"، وفى رواية:"رِضَا اللهِ مِنْ رِضَا الْوَالِدَيْنِ، وَسَخَطُ اللهِ مِنْ سَخَطِ الْوَالِدَيْنِ" [شعب الإيمان]، وفى اقتران الأمر بشكر الوالدين مع الأمر بشكر الله دليل واضح على قيمة وقدر الوالدين.

وشكر الوالدين ليس فقط على الإيجاد، وإنما على ما قدماه بعد الإيجاد مما ذكر الله – تعالى – من جهدهما، وقال القرطبي:(قِيلَ: الشُّكْرُ لِلَّهِ عَلَى نِعْمَةِ الْإِيمَانِ، وَلِلْوَالِدَيْنِ عَلَى نِعْمَةِ التَّرْبِيَةِ، وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: مَنْ صَلَّى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فَقَدْ شَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى، وَمَنْ دَعَا لِوَالِدَيْهِ فِي أَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ فَقَدْ شَكَرَهُمَا)، وقوله – تعالى -:"إِلَيَّ الْمَصِيرُ"، أي: المرجع والمآل إلى الله، وسيسأل كل إنسان عن الوصية، وهل حفظها أم لا؟، أو أن الله سيجازى على الشكر أوفر الجزاء.

الأمر السابع: قال الله – تعالى -: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ...﴾ [لقمان:

١٥]، فى آية العنكبوت قال الله – عز وجل -:"وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما ..."، وهنا قال:"عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي"، وهناك فرق بينهما فى الدلالة، فقوله:"لِتُشْرِكَ بِي" يدل على أن المجاهدة على الشرك خفيفة وليست قوية، وأما قوله:"عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي" دليل على أن مجاهدة الوالدين للولد على الشرك أشد وأقوى؛ ولذا جاء بـ (على) التى تفيد الاستعلاء إشارة إلى قوة المجاهدة وشدتها، ولما كانت المجاهدة فى آية العنكبوت أخف قال:"وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ..."، ولم يقل هنا "حسنًا"، وقال هناك:"لِتُشْرِكَ بِي"، وقال هنا:"عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي"، وقال هنا فى آية لقمان:"فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا"؛ وذلك أنه فى آية العنكبوت لما ذكر لفظ:"حُسْنًا" لم يحتج إلى أن يقال له:"وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا"، وأما فى آية لقمان فإنه لما لم يذكر لفظ:"حُسْنًا"، بين ما يجب على الولد تجاه والديه المشركين اللذين يجاهدانه مجاهدة قوية على الشرك بقوله: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾، فذكر فى كل آية ما يناسب حال الوالدين.

الأمر الثامن: فى قوله – تعالى -:﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾، إشارة إلى أن الوالدين على حالين:

الأول: والدان يحتاجان إلى المعونة من الولد حتى وإن كانا مشركين، فأمره بمصاحبتهما فى الدنيا معروفًا، والمعروف فى هذه الحالة أن يقيم لهما حياة كريمة ماديًا ومعنويًا، فيبذل لهما من ماله ما يكفيهما، ولا

يتأفف أمامهما ولا يعبس بوجهه ولا يزجرهما، فضلًا عن ضربهما أو إيذائهما بأي صورة، وفيه إشارة أيضًا إلى بذل المعروف لهما ولولم يطلباه.

الثانى: والدان لا يحتاجان إلى معونة الولد، فمصاحبتهما تكون على وجه لا يتعارض مع عقيدته.

قال الإمام القرطبي:(وَالْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى صِلَةِ الْأَبَوَيْنِ الْكَافِرَيْنِ بِمَا أَمْكَنَ مِنَ الْمَالِ إِنْ كَانَا فَقِيرَيْنِ، وَإِلَانَةِ الْقَوْلِ وَالدُّعَاءِ إِلَى الْإِسْلَامِ بِرِفْقٍ، وَقَدْ قَالَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ لِلنَّبِيِّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسلام - وقد قدمت عليها خَالَتُهَا وَقِيلَ أُمُّهَا مِنَ الرَّضَاعَةِ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ عَلَيَّ وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُهَا؟ قَالَ:"نَعَمْ"، وَرَاغِبَةٌ قِيلَ مَعْنَاهُ:عَنِ الْإِسْلَامِ، قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَالظَّاهِرُ عِنْدِي أَنَّهَا رَاغِبَةٌ فِي الصِّلَةِ، وَمَا كَانَتْ لِتَقْدُمَ عَلَى أَسْمَاءَ لَوْلَا حَاجَتُهَا).

أيضًا، قوله – تعالى -:﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾، حاول بعض المستشرقين أن يوهموا، أو توهموا أن هناك تعارضًا بينها وبين قوله – تعالى -: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ...﴾ [المجادلة: ٢٢]، فقالوا كيف يأمر بالمعروف وهو ينهى عن الودّ؟، وهذا فى الحقيقة إن دلّ فإنما يدلّ على جهلهم وسوء فهمهم فإن هناك فرق بين الودّ والمعروف، فالودّ هو ميل القلب، وأما المعروف فهو ميل القالب، لذا أمر بالمعروف ونهى عن الودّ؛ فإن المعروف يصنعه فيمن يحب ومن

لا يحب، وقد قيل: اصنع المعروف فى أهله وفى غير أهله، فإن صادف أهله فهو أهله، وإن لم يصادف أهله فأنت أهله، وقد بين القرآن هذا الأمر أيضًا فى قوله – جل وعلا -:﴿لَا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩]، فليس هناك تعارض بين الآيتين، وإنما هو وهم ناشئ عن جهل وعدم فهم.

الأمر التاسع: يقول الله – تعالى -:"وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" [لقمان: ١٥]، كلمة "أَنابَ"، معناها: مال ورجع إلى الشيء، وهذه سبيل الأنبياء والمرسلين، قال البغوي:("وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ"، أَيْ: دِينَ مَنْ أَقْبَلَ إِلَى طَاعَتِي وَهُوَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَصْحَابُهُ)، وقيل: أنها نزلت فى أبى بكر – رضي الله عنه -؛ فإنه لما أسلم أتاه سعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف وعثمان وطلحة وسعيد والزبير، فقالوا له: آمنت؟، قال:نعم، فأسلموا جميعًا وأنزل الله – تعالى – فيهم: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرى فَبَشِّرْ عِبادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]، فكانت لهم سابقة الإسلام، أسلموا بإرشاد أبى بكر – رضي الله عنه -.

وقوله – تعالى -:﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، قال الإمام القرطبي:(ثُمَّ تَوَعَّدَ - عَزَّ وَجَلَّ - بِبَعْثِ مَنْ فِي الْقُبُورِ وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ لِلْجَزَاءِ والتوقيف على صغير الأعمال وكبيرها)، وقال الإمام الطبري:(وقوله:"إِليَّ مَرْجِعُكُمْ فأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ"؛ فإن إليّ مصيركم ومعادكم بعد مماتكم، فأخبركم بجميع ما كنتم في الدنيا تعملون من خير وشرّ، ثم أجازيكم على أعمالكم، المحسن منكم بإحسانه والمسيء بإساءته)، وقال أبو حيان:("ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ"، أَيْ: مَرْجِعُكَ وَمَرْجِعُهُمَا، فَأُجَازِي كُلًّا مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ).

الوصية الثالثة: إحاطة العلم والقدرة الإلهية

قال الله – تعالى -:﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]، بعدما ذكّر لقمان ولده بالأصل الأول وهو التوحيد من خلال تحذيره من الشرك بالله – تعالى – فى قوله: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، أراد أن يذكره بمنهج الله – عز وجل – والمتمثل فى (افعل ولا تفعل)، ولكنه قبل أن يذكره بذلك أراد أن ينبهه إلى قضية هامة فى التعامل مع المنهج وقبل أن يدخل على تطبيقه، فأراد أن يقول له: يا بني إنك تتعامل مع ربّ قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يغيب عنه شيء، فادخل على منهج الله بهذا الاعتقاد وإياك أن تتغلب عليك شبهة أنك لا ترى الله، فإنك إن لم تكن تراه فإنه يراك، فأقبل على منهج الله بهذا واعلم أن عملك محسوب عليك مهما خفي ومهما دق وصغر، فإن الله لا تخفى عليه خافية [تفسير الشعراوي]، فقال له:" يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ..."، أراد أن ينبهه إلى أن علم الله – تعالى – محيط بكل شيء، وأن قدرته مطلقة، قال الله – عز وجل -:﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [الطلاق: ١٢]،

فالله – سبحانه – يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، والآيات الدالة على إحاطة علم الله كثيرة، منها: قوله – تعالى -:﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ لَا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٥، ٦]، وقوله – عز وجل -:﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣]، وقال – تعالى -:﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى﴾ [طه: ٧]، وقوله – سبحانه -:﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ ...﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقوله:﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٠]، وقوله – تعالى -:﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ * أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٣، ١٤]، وتأمل ختام الآية في قوله – تعالى -:﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾، لم يقل إنه عليم بالسر والجهر، إنما قال:" إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ"؛ لأن السر والجهر عند الله سواء ولكنه – سبحانه – يعلم ما هو أخفى من السر، فهو – جل جلاله -:"عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ"، ولذا قال بعدها: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، بلى – سبحانه -.

ولما أخبرنا القرآن الكريم بعلم الله – تعالى – بالسر والجهر حاول بعض المستشرقين أن ينالوا من القرآن فقالوا: القرآن يخبر أن الله امتن على عباده بأنه يعلم السر، فكيف يمتن بعلمه بالجهر وهو معلوم؟، وهذا إن دلّ فإنما يدلّ على جهلهم وسوء فهمهم، والجواب عن ذلك:

إذا تأملنا الآيات التى تتحدث عن علم الله – تعالى – بالسر والجهر نجد أنها جاءت موجهة إلى جماعة وليس إلى فرد، وهذا له مدلول عظيم فلو تخيلنا أن مجموعة من الناس اجتمعوا فى مكان واحد، هذا يتكلم بكلمة وهذا بكلمة وهذا يكلم هذا، فهل يستطيع أحد من الحاضرين أن يحصى جميع الكلام الذى تكلموا به وينسب كل كلمة إلى قائلها؟، وكلما كان الجمع أكبر كلما كان الأمر أصعب مع أن الكلام جهرًا وليس سرًّا، وقد مثل له الشيخ الشعراوي – رحمه الله – بالمظاهرات التى يجتمع فيها العشرات أو المئات بل الآلاف من الناس، لكن الله – تعالى – الذى أحاط علمه كل شيء يعلم كلّ كلمة ومن قائلها، بل ويعلم نيته وهدفه من كل كلمة يقولها، فكيف لا يمتن بعلمه بالجهر، وهذا المعنى ما عبرت عنه السيدة عائشة – رضي الله عنها – بقولها:" الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتْ خَوْلَةُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - تَشْكُو زَوْجَهَا، فَكَانَ يَخْفَى عَلَيَّ كَلَامُهَا – وفى رواية:مَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ -، فَأَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -:﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ...﴾ [المجادلة: ١] [البخاري والنسائي وابن ماجة]، لأجل هذا امتن الله – تعالى – على عباده بعلم الجهر، بل إن علم الجهر أعظم فى الدلالة على إحاطة علمه من علم السر وأبلغ.

وقوله:" يَا بُنَيَّ إِنَّهَا ..."، "إِنَّهَا" الضمير فيها عائد على الحسنة أو السيئة أو المظلمة أو الرزق أو أي شيء، فهو يشمل ذلك كله، وقيل: إن

ابن لقمان قال لأبيه: يا أبتى إن عملت الخطيئة حيث لا يرانى أحد كيف يعلمها الله؟، فقال له:﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ...﴾، "مِثْقَالَ" يعنى مقدار أو وزن، "حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ" الخردل هو نبات عشبى يستخدم كنوع من البهارات أو التوابل، وتتميز حبات بذوره بصغرها ودقتها، وضربت مثلًا لأنها كانت أصغر شيء معروف عندهم وقتها، فذكرها مثالًا للدقة والصغر على قدر معرفة الناس بالأشياء وقتها، وقد ورد ذكرها فى كثير من أحاديث النبي – ﷺ – كمثالًا للتناهى فى الدقة والصغر أيضًا، منها قوله – ﷺ -:"إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، يَقُولُ اللَّهُ: مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، ..." الحديث [متفق عليه]، وقوله - ﷺ -:"لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرِيَاءَ" [مسلم]، وقوله - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ:"يَأْكُلُ التُّرَابُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَّا عَجْبَ ذَنَبِهِ" قِيلَ: وَمِثْلُ مَا هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ:"مِثْلُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ، مِنْهُ تَنْبُتُونَ" [أحمد].

وقد ذكر الله – تعالى – ما هو أدق وأصغر من حبة الخردل وجعله مقياسًا دينيًا للأعمال، وهو الذرة، فقال – سبحانه -:﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، ومن عجيب أن العلماء حينما استطاعوا أن يفتتوا الذرة ويحولوها إلى أجزاء ظن بعض المستشرقين أنهم قد وجدوا مأخذًا على القرآن، فقالوا: كيف

يذكر القرآن الذرة ويجعلها مقياسًا دينيًا للأعمال وهناك ما هو أصغر من الذرة؟، وهذا الظن أيضًا ناشئ عن جهل وعدم إلمام بكلام الله – تعالى -؛ لأنهم لو كان لديهم إلمام بكلام الله لعلموا أن الله – تعالى – قد ذكر الذرة وما هو أصغر من الذرة، واقرءوا إن شئتم قول الله – عز وجل -:﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]، وقوله – سبحانه -:﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣]، فقوله:"وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ" يشمل كل ما يكتشف مما هو أصغر من الذرة إلى قيام الساعة.

وقوله:" فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ"، قرأ بعضهم:"فَتَكِنُّ" أي: تستقر، "فِي صَخْرَةٍ"، المراد أيّ صخرة فى الوجود، وقيل: هي صخرة تحت الأرض تسمى السّجّين الذى يكتب فيه أعمال الفجار، قال – تعالى -: ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَما أَدْراكَ مَا سِجِّينٌ * كِتابٌ مَرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٧- ٩]، وقيل: هي صخرة تحت الأرضين السبع وعليها الأرض، وقيل غير ذلك، قال الحافظ ابن كثير:(وَالظَّاهِرُ -وَاللَّهُ أَعْلَمُ -أَنَّ الْمُرَادَ: أَنَّ هَذِهِ الْحَبَّةَ فِي حَقَارَتِهَا لَوْ كَانَتْ دَاخِلَ صَخْرَةٍ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيُبْدِيهَا وَيُظْهِرُهَا بِلَطِيفِ عِلْمِهِ)، وذكر الصخرة

دلالة على الضيق وشدة الخفاء، ثم قال:"أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ"، دلالة على المتسع الذى لا حدود له، والمعنى أنه لا فى الضيق المحكم ولا فى المتسع الذى لا حدود له يخفى على الله شيء؛ لأنه – سبحانه – قد أحاط بكل شيء علمًا، ولذلك قال:"يَأْتِ بِهَا اللَّهُ"، قال الشيخ ابن عاشور:(وَالْإِتْيَانُ كِنَايَةٌ عَنِ التَّمَكُّنِ مِنْهَا، وَهُوَ أَيْضًا كِنَايَةٌ رَمْزِيَّةٌ عَنِ الْعِلْمِ بِهَا لِأَنَّ الْإِتْيَانَ بِأَدَقِّ الْأَجْسَامِ مِنْ أَقْصَى الْأَمْكِنَةِ وَأَعْمَقِهَا وَأَصْلَبِهَا لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ عِلْمٍ بِكَوْنِهَا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ وَعِلْمٍ بِوَسَائِلِ اسْتِخْرَاجِهَا مِنْهُ)، وقال الحافظ ابن كثير:(وَقَوْلُهُ:"يَأْتِ بِهَا اللَّهُ" أَيْ: أَحْضَرَهَا اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ، وَجَازَى عَلَيْهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، كَمَا قَالَ – تَعَالَى -:﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الْأَنْبِيَاءِ: ٤٧]، وَقَالَ – تَعَالَى -:﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزَّلْزَلَةِ:٧، ٨]، وَلَوْ كَانَتْ تِلْكَ الذَّرَّةُ مُحَصَّنَةً مُحَجَّبَةً فِي دَاخِلِ صَخْرَةٍ صَمَّاء، أَوْ غَائِبَةٍ ذَاهِبَةٍ فِي أرجاء السموات أَوِ الْأَرْضِ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِهَا؛ لِأَنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السموات وَلَا فِي الْأَرْضِ؛ وَلِهَذَا قَالَ:﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، أَيْ: لِطَيْفُ الْعَلَمِ، فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ الْأَشْيَاءُ وَإِنْ دَقت وَلَطُفَتْ وَتَضَاءَلَتْ "خَبِيرٌ" بِدَبِيبِ النَّمْلِ فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ).

وقال الشيخ ابن عاشور:(فَذُكِرَ أَدَقُّ الْكَائِنَاتِ حَالًا مِنْ حَيْثُ تَعَلُّقِ

الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ بِهِ، وَذَلِكَ أَدَقُّ الْأَجْسَامِ الْمُخْتَفِي فِي أَصْلَبِ مَكَانٍ أَوْ أَقْصَاهُ وَأَعَزِّهِ مَنَالًا، أَوْ أَوْسَعِهِ وَأَشَدِّهِ انْتِشَارًا، لِيُعْلَمَ أَنَّ مَا هُوَ أَقْوَى مِنْهُ فِي الظُّهُورِ وَالدُّنُوِّ مِنَ التَّنَاوُلِ أَوْلَى بِأَنْ يُحِيطَ بِهِ عِلْمُ اللَّهِ وَقُدْرَتُهُ).

ثم ذكر الله – عز وجل – حيثيات هذا الإتيان بذكر وصفين لله – تعالى -، فقال:"إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ"، لأن إحاطة علم الله تستلزم هاذين الوصفين، فالإنسان – ولله المثل الأعلى – قد يكون خبيرًا بمواطن الأشياء ولكنه لا يستطيع الوصول إليها والإتيان بها لدقتها وشدة خفائها، لكن الله – تعالى – خبير بمواطن الأشياء ومهما صغرت الأشياء ودقت فعلمه – سبحانه – يصل إليها قادر على الإتيان بها لا يمنعه من ذلك مانع؛ لأنه – جل جلاله –:"لَطِيفٌ خَبِيرٌ"، ومعنى اللطف هنا: هو التغلغل فى الأشياء، قال ابن عاشور:(وَاللَّطِيفُ: مَنْ يَعْلَمُ دَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ وَيَسْلُكُ فِي إِيصَالِهَا إِلَى مَنْ تَصْلُحُ بِهِ مَسْلَكَ الرِّفْقِ، فَهُوَ وَصْفٌ مُؤْذِنٌ بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ الْكَامِلَيْنِ، أَيْ يَعْلَمُ وَيُقَدِّرُ وَيُنَفِّذُ قُدْرَتَهُ ...، ثم قال: فَفِي تَعْقِيبِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ بِوَصْفِهِ بِ (اللَّطِيفُ) إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ التَّمَكُّنَ مِنْهَا وَامْتِلَاكَهَا بِكَيْفِيَّةٍ دَقِيقَةٍ تُنَاسِبُ فَلْقَ الصَّخْرَةِ وَاسْتِخْرَاجَ الْخَرْدَلَةِ مِنْهَا مَعَ سلامتهما وَسَلَامَةِ مَا اتَّصَلَ بِهِمَا مِن اخْتِلَالِ نِظَامِ صُنْعِهِ)، فمعنى:"إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ"، أي: لا يعوذه علم بالمكان ولا سهولة ويسر فى الوصول إلى الأشياء، وقد اقترن هذان الوصفان فى عدة مواضع من كتاب الله – تعالى – اسمًا أو وصفًا فى سياق الكلام عن علمه – تعالى – وحكمته، منها قوله – عز وجل -:﴿لَا

تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وقوله – سبحانه -:﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣]، وقوله:﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٤]، وقوله – جل وعلا -:﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وتارة يأتى وصف "لطيف" وحده مقترنًا بالعلم كما فى قوله – تعالى – على لسان نبيه يوسف – عليه السلام -:﴿... إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، وتارة ينفرد وصف "خبير" باقترانه بعلم الله وحكمته كما فى قوله – تعالى -:﴿... إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾ [النساء: ٣٥]، وقوله – جل وعلا – على لسان نبيه محمد – ﷺ -:﴿... قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]، قال الإمام البغوي:(إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ، بِاسْتِخْرَاجِهَا، خَبِيرٌ، عَالَمٌ بِمَكَانِهَا، قَالَ الحسن:معنى الآية هي الْإِحَاطَةُ بِالْأَشْيَاءِ صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا، وَفِي بَعْضِ الْكُتُبِ إِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ آخِرُ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا لُقْمَانُ فَانْشَقَّتْ مَرَارَتُهُ مِنْ هَيْبَتِهَا فَمَاتَ - رحمه الله -)، وقال الإمام القرطبي:(وَهَذَا الْقَوْلُ مِنْ لُقْمَانَ إِنَّمَا قَصَدَ بِهِ إِعْلَامَ ابْنِهِ بِقَدْرِ قُدْرَةِ اللَّهِ – تَعَالَى -، وَهَذِهِ الْغَايَةُ الَّتِي أَمْكَنَهُ أَنْ يُفْهِمَهُ؛ لِأَنَّ الْخَرْدَلَةَ يُقَالُ: إِنَّ الْحِسَّ لَا يُدْرِكُ لَهَا ثِقَلًا، إِذْ لَا تُرَجِّحُ مِيزَانًا، أَيْ لَوْ كَانَ لِلْإِنْسَانِ رِزْقُ مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ جَاءَ اللَّهُ بِهَا حَتَّى يَسُوقَهَا إِلَى مَنْ هِيَ رِزْقُهُ، أَيْ لَا تَهْتَمُّ لِلرِّزْقِ حَتَّى تَشْتَغِلَ بِهِ عَنْ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ، وَعَنِ اتِّبَاعِ

سَبِيلِ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ، قُلْتُ: وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ النَّبِيِّ - ﷺ - لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ:"لَا تُكْثِرْ هَمَّكَ مَا يُقَدَّرُ يَكُونُ وَمَا تُرْزَقُ يَأْتِيكَ"، وَقَدْ نَطَقَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِأَنَّ اللَّهَ – تعالى - قد أحاط بكل شي علما، وأحصى كل شي عَدَدًا، سُبْحَانَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ).

فإذا أردت أن تدخل على منهج الله – عز وجل – فلابد وأن تدخل عليه بهذا الاعتقاد، حين ذاك يسهل عليك المنهج فتطبقه كما أراد الله – تعالى -.

فكانت هذه قضية وقاعدة هامة أراد لقمان أن ينبه ابنه إليها قبل أن يدخل به فى وعظه إلى منهج الله – عز وجل -.

الوصية الرابعة: "أَقِمِ الصَّلاةَ"

قال الله – تعالى –: ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلى مَا أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، بعد أن استكمل لقمان أصول الاعتقاد الصحيح يدخل بعد ذلك فى وعظه لابنه إلى مجال التكليف، فيقول له:"يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ ..."، فأول ما بدأ به من أعمال التكليف (الصلاة) وحقَّ له ذلك؛ فإن الصلاة هي أول أعمال التكليف وهي الركن الثانى من أركان الدين بعد الشهادتين، كما جاء فى حديث النبي – ﷺ -:"بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ" [متفق عليه]، ولفظ الصلاة من أكثر الألفاظ ذكرًا فى القرآن الكريم فقد ذُكرت فى عشرات المواضع من كتاب الله – عز وجل –، وهي من الألفاظ التى ذُكرت بجميع مشتقاتها فى القرآن، فذُكر منها المصدر والماضى والمضارع والأمر والجمع والمفرد، وجاء بمعنى الصلاة المفروضة وجاء بمعانٍ أخر، وجاءت معرفة وجاءت منكرة، وهذا كله يدل على أهمية وعظمة مكانة الصلاة فى الدين.

وتعالوا لنتأمل ذكر هذا اللفظ ودلالته فى القرآن الكريم، فنلاحظ:

أنه إذا جاء لفظ الصلاة معرّفًا بالألف واللام فهو يدل على عموم الصلاة المفروضة، كقوله – تعالى –:﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَارْكَعُوا

مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقوله:﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣١]، إلا فى مواضع معدودة منها قوله – تعالى -:﴿وَإِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَلَعِباً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٨]، فقيل: إن المراد بها صلاة الجماعة، وقوله – تعالى -:﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: ١٠٦]، قيل: المراد بها صلاة العصر، وقيل:صلاة الظهر، وقيل:صلاة الجماعة، قال البغوي والقرطبي:(يريد بها بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ، هَذَا قَوْلُ الشَّعْبِيِّ وَالنَّخَعِيِّ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةَ وَعَامَّةِ الْمُفَسِّرِينَ، لِأَنَّ جَمِيعَ أَهْلِ الْأَدْيَانِ يُعَظِّمُونَ ذَلِكَ الْوَقْتَ، وَيَجْتَنِبُونَ فِيهِ الْحَلِفَ الْكَاذِبَ، وَقَالَ الْحَسَنُ: أَرَادَ مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعَصْرِ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ أَهْلِ دِينِهِمَا وَمِلَّتِهِمَا لِأَنَّهُمَا لَا يُبَالِيَانِ بِصَلَاةِ الْعَصْرِ، وَقَالَ الْحَسَنُ: صَلَاةُ الظُّهْرِ)، وقال ابن كثير:(وَالْمَقْصُودُ: أَنْ يُقَامَ هَذَانَ الشَّاهِدَانِ بَعْدَ صَلَاةٍ اجْتَمَعَ النَّاسُ فِيهَا بِحَضْرَتِهِمْ)، وقوله – تعالى -:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ..." [الجمعة: ٩]، وقوله:" فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ..." [الجمعة: ١٠]، فالمراد بها صلاة الجمعة خاصة.

إذا جاء لفظ (الصلاة) نكرة فإنه يدل على: إما معنى خاص، كما فى قوله – تعالى -:﴿إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣]، فالمراد به الدعاء والاستغفار، وكما فى قوله:"قالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ ..." [هود: ٨٧]، قيل المراد بالصلاة: القراءة، وإما أن يدل على هيئة أو حالة خاصة كما فى قوله – تعالى -:﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ﴾

[المؤمنون: ٢]، وإما أن يدل على صلاة غير الصلاة المفروضة كما فى قوله – تعالى -:﴿وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٥]، فالمراد به ما كان يفعله المشركون حول الكعبة المشرفة، والمراد بالمكاء: الصفير والمكاء طائر أبيض موجود بأرض الحجاز شبه صفيرهم بصوته، والتصدية: التصفيق، قال ابن عباس – رضي الله عنهما -:"كانوا يطوفون بالكعبة عراة يصفرون ويصفقون".

وأما إذا جاء لفظ (الصلاة) جمعًا، فإما أن يراد به الصلاة المفروضة، كما فى قوله – تعالى -:﴿حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطى وَقُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وإما أن يراد به معنى آخر، كما فى قوله – تعالى -:﴿أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٥٧]، أي: ثناء ورحمة، وقوله – تعالى -:"وَصَلَواتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ" [التوبة: ٩٩]، أي: الدعاء والاستغفار، وقوله – سبحانه -:﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً﴾ [الحج: ٤٠]، فالمراد بالصلوات أماكن العبادة.

وجاء لفظ (الصلاة) مقرونًا بلفظ (الزكاة) فى آية واحدة فى ستة وعشرين موضعًا من كتاب الله – تعالى -، وجاء مقترنًا به فى سياق واحد مرة واحدة فى أول سورة المؤمنون حيث يقول الله – تعالى -:﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٤]، وانفرد لفظ

الزكاة فى ثلاثة مواضع: فى قوله – تعالى -:﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقوله – سبحانه -:﴿وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩]، وقوله – عز وجل -:"الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ" [فصلت: ٧]، وذكر لفظ الزكاة بغير معنى الزكاة المفروضة فى موضعين، فى قوله – تعالى -: ﴿ فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾ [الكهف: ٨١]، وقوله – جل وعلا -:﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٣].

فلفظ (الصلاة) كما ذكرنا من أكثر الألفاظ ذكرًا فى القرآن الكريم وهذا يدلّ على أهمية الصلاة وعظم مكانتها.

فائدة: أكثر لفظ ذُكر فى القرآن الكريم هو لفظ الجلالة (الله) وقد ورد فى القرآن (٢٦٩٩) مرة فى قرابة الخمس وثمانين سورة، ومن أسرار هذا الرقم (٢٦٩٩) أنه لا يقبل القسمة إلا على (١) إذ هو عدد مرات ورود اسم (الله) الواحد – جل جلاله وتقدست أسمائه -، وأكثر آية ورد فيها اسم (الله) هي آخر آية فى سورة المزمل وقد ورد فيها سبع مرات، والسورة التى ورد فيها اسم (الله) فى كل آية منها هي سورة المجادلة، وأكثر ضمير منفصل ذُكر فى القرآن الكريم (هو)، وأكثر عدد ذُكر فى القرآن بمشتقاته هو العدد (واحد)، فحين تجمع الثلاثة معًا يتكون لديك (هو الله الواحد)، فما أعظم هذا الكتاب إنها الحقيقة التى من أجلها خلق الله

الخلق وأرسل الرسل وأنزل الكتب.

ونعود إلى فريضة الصلاة، فنقول: إن مما يدلّ على أهمية الصلاة وعظم مكانتها أنها فرضت فى جميع الشرائع السماوية، قال الله - تعالى – فى سياق الحديث عن أنبيائه – عليهم السلام – فى سورة الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وقال الله – عز وجل -: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال – جل وعلا -:﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ ...﴾ [المائدة: ١٢]، وقال الله – تعالى – على لسان الخليل إبراهيم – عليه السلام -:﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وقال أيضًا: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وقال – سبحانه – لكليمه موسى – عليه السلام -:﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، وقال أيضًا:﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٨٧]، وقال عن نبيه عيسى – عليه السلام -:﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾

[مريم: ٣١]، وقال عن إسماعيل – عليه السلام –:﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥]، وقال لنبيه محمد – ﷺ –:﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه" ١٣٢].

وفى الصلاة تجتمع جميع أركان الإسلام، ففيها الركن الأول وهو الشهادتين بلا شك ينطق بهما المسلم فى تشهده وجوبًا، وفيها الزكاة؛ لأن فيها تزكية بالوقت فهي تأخذ من وقت العمل المحصل للمال الذى عليه الزكاة، ففيها زكاة بالأصل وهو الوقت، وفيها الصيام، بل الصيام فيها أوسع من صيام الفريضة، فإن كان صوم الفريضة هو الإمساك عن شهوتي الفرج والبطن ففى الصلاة إمساك زائدٌ عن ذلك كالإمساك عن الحركة والكلام ونحوه، وفيها أيضًا الحج؛ لأنك في الصلاة تستحضر بيت الله الحرام حين تتوجه إليه، فكأنك حججت بقلبك وإن عجزت عن الحج بقالبك، ولذلك تسمى الصلاة عماد الدين أو عمود الدين، ففى حديث معاذ بن جبل – رضي الله عنه – قال له النبي – ﷺ –:"أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟ " فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: " رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ ..." الحديث [أحمد والنسائي والحاكم]، والعماد والعمود ما يعتمد عليه الشيء، كالبيت على أعمدته، فكل دين لا صلاة فيه غير قائم، ولا نافع لصاحبه.

ونلاحظ أيضًا أن لقمان وهو يوجه ابنه لأمر الصلاة قال له:"يَا بُنَيَّ

أَقِمِ الصَّلاةَ ..."، ولم يقل: أدّ الصلاة، فإن هناك فرقٌ كبيرٌ بين الإقامة والأداء، فكل النصوص التى جاءت تحث على القيام بفريضة الصلاة فى الكتاب والسنة جاءت بلفظ (الإقامة) وليس الأداء، فإن الصلاة لا يتحقق أثرها إلا إذا أُقيمت وليس مجرد أداء شكلي، قال الله – تعالى -:﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال الله – عز وجل -:﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ ...﴾ [المائدة: ١٢]، وقال الله – تعالى -: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]، وقال:﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ...﴾ [التوبة: ١١]، وقال – سبحانه -:﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، إلى غير ذلك من الآيات التى تأمر وتحث على إقامة الصلاة، وقال رسول الله – ﷺ -:" خَمْسُ صَلَوَاتٍ افْتَرَضَهُنَّ اللَّهُ – تَعَالَى - مَنْ أَحْسَنَ وُضُوءَهُنَّ وَصَلَّاهُنَّ لِوَقْتِهِنَّ وَأَتَمَّ رُكُوعَهُنَّ وَخُشُوعَهُنَّ كَانَ لَهُ عَلَى اللَّهِ عَهْدٌ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلَيْسَ لَهُ عَلَى اللَّهِ عَهْدٌ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ" [أبو داود وأحمد]، وقال - ﷺ -:"قَالَ اللَّهُ – تَعَالَى -:"إِنِّي فَرَضْتُ عَلَى أُمَّتِكَ خَمْسَ صَلَوَاتٍ وَعَهِدْتُ عِنْدِي عَهْدًا أَنَّهُ مَنْ جَاءَ يُحَافِظُ عَلَيْهِنَّ لِوَقْتِهِنَّ أَدْخَلْتُهُ الْجَنَّةَ وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهِنَّ فَلَا عَهْدَ لَهُ عِنْدِي" [أبو داود وابن ماجة]، وقال - ﷺ -:" خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ،

فَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ لَمْ يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شَيْئًا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ، كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ" [أبو داود والنسائي]، والأحاديث كثيرة فى الحث على إقامة الصلاة، وقد بين لنا النبي – ﷺ – كيف تتحقق إقامة الصلاة فى قوله:" مَنْ أَحْسَنَ وُضُوءَهُنَّ وَصَلَّاهُنَّ لِوَقْتِهِنَّ وَأَتَمَّ رُكُوعَهُنَّ وَخُشُوعَهُنَّ ..." الحديث، وفى رواية عند الإمام أحمد:"مَنْ حَافَظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ: رُكُوعِهِنَّ، وَسُجُودِهِنَّ، وَوُضُوئِهِنَّ، وَمَوَاقِيتِهِنَّ، وَعَلِمَ أَنَّهُنَّ حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ"، أَوْ قَالَ: "وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ"، إذا فإقامة الصلاة تعنى: أن يحسن العبد لها الوضوء وأن يصليها فى وقتها وأن يتم ركوعها وسجودها وسائر أعمالها، وأن يحقق فيها الخشوع والطمأنينة، فيصلى كما صلى رسول الله – ﷺ – الذى قال لنا:"وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي" [البخاري]، فكل موضع فى الكتاب والسنة مدح الله بفعل الصلاة أو حث عليها جاء بلفظ (الإقامة) تنبيهًا على أن المقصود توفية حقوقها وشرائطها وليس مجرد الإتيان بصورها وهيئاتهافحسب فيكون مجرد أداء شكلي ظاهري لا قيمة له ولا أثر.

ولقمان حينما أمر ابنه بإقامة الصلاة فلأنها كما قلنا أول أعمال التكليف وهي الركن الثانى من أركان الدين، كما أنها هي الفريضة الوحيدة التى لا تسقط عن العبد إلا بالموت ما دام عقله حاضرًا، بخلاف الزكاة والصيام والحج فقد تسقط عن العبد لسبب ما.

ولما قضت إرادة الله وحكمته أن تكون الصلاة هي الفريضة الوحيدة التى لا تسقط عن المكلف إلا بالموت ما دام عقله معه، فقد علم الله – تعالى – أن فى مقدور كلّ مكلف عاقل أن يقوم بها، فالله – تعالى – لا يكلف عبده بشيء ويضنّ عليه بوقته، لذا هيء الله – عز وجل – لعباده كل الأسباب التى تعينهم على القيام بهذه الفريضة.

وإذا تأملنا أحكام الصلاة وجدنا ذلك واضحًا جليًا، فالله – عز وجل – من رحمته بعباده شرع لهم من الرخص فى الصلاة ما لا تجده فى عبادة أخرى، فشرع لهم التيمم عند فقد الماء أو تعذر استعماله، وأجاز لهم المسح على الخفين وما فى حكمهما، ورخص لهم قصر الصلاة الرباعية فى السفر، ورخص لهم الجمع بين الصلوات، بل وجعل للمكلف حرية تضييق وقت العبادة أو توسيعه بحسب ظروفه وحاجته؛ فإذا أراد أن يوسع الوقت جمع العصر مع الظهر فى وقت الظهر وجمع المغرب مع العشاء فى وقت العشاء، وإذا أراد أن يضيق وقت العبادة جمع الظهر مع العصر فى وقت العصر وجمع العشاء مع المغرب فى وقت المغرب، كما رخص لمن عجز عن الصلاة قائمًا أن يصلى قاعدًا، فإذا لم يستطع صلى مضجعًا على جنبه، فإن لم يستطع صلى مستلقيًا على ظهره يومئ إيماءً برأسه أو بعينيه، فإن لم يستطع ردّد الأذكار بلسانه، فإن عجز أجرى أفعال الصلاة على قلبه، وجعل الله – تعالى – الأخذ بهذه الرخص فى محلها مما يحبه – سبحانه -، قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -:"إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ، كَمَا يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُهُ"، وفي رواية:"كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ" [أحمد

وابن حبان والبيهقي]، كل هذا التيسير والتسهيل حتى لا يكون لأحد عذر ولا حجة فى ترك الصلاة حتى ولو كان فى حالة الحرب.

فالصلاة هي استدامة إعلان الولاء لله – تعالى – خمس مرات فى اليوم والليلة، وهي صلة العبد بربه ومعراج القلب إلى السماء، وفيها الراحة والسعادة وقرة العين كما قال خير الخلق – ﷺ -:"وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ" [النسائي وأحمد]، وهي سبب الفلاح والنجاح فى الدنيا والآخرة، قال الله – تعالى -:﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢]، فإذا صحت الصلاة صحّ كل ما فعله المسلم من عبادات وطاعات، قال رسول الله – ﷺ -:"إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ"، وفى رواية:"فَإِنْ صَلَحَتْ صَلَحَ لَهُ سَائِرُ عَمَلِهِ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِهِ" [الترمذي والطبراني]، وعن المسور بن مخرمة، أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ مِنَ اللَّيْلَةِ الَّتِي طُعِنَ فِيهَا، فَأَيْقَظَ عُمَرَ لِصَلَاةِ الصُّبْحِ، فَقَالَ عُمَرُ:"نَعَمْ، وَلَا حَظَّ فِي الْإِسْلَامِ لِمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ"، فَصَلَّى عُمَرُ وَجُرْحُهُ يَثْعَبُ دَمًا" [الموطأ]، وروى أبو نعيم فى الحلية، عَنْ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ لُقْمَانُ الْحَكِيمُ فِيمَا يَعِظُ بِهِ ابْنَهُ: يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ فَإِنَّ مَثَلَهَا فِي دِينِ اللهِ كَمَثَلِ عَمُودِ فُسْطَاطٍ فَإِنِ الْعَمُودُ اسْتَقَامَ نَفَعَتِ الْأَوْتَادُ وَالْأَطْنَابُ وَالظِّلَالُ. فَإِذَا مَالَ الْعَمُودُ أَوْ تَغَيَّرَ لَمْ يَنْفَعْ وَتَدٌ وَلَا طُنُبٌ وَلَا ظِلَالٌ"، إذًا فلا عذر ولا حجة لأحد قط فى ترك الصلاة.

الوصية الخامسة: "وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ"

قال الله – تعالى -: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، بعد أن أمره بالصلاة التى هي عمود الدين أراد لقمان أن يبين لابنه أن من الإيمان ومن كمال الإيمان أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك، فقال له:"وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ"، أي: انشغل بعد كمالك بإقامة الصلاة بأن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فبالصلاة كملت فى ذاتك وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تنقل هذا الكمال إلى غيرك ففى ذلك كمال الإيمان، فيا لها من وصية عظيمة ما أحوج الأمة إليها اليوم، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الفريضة التى حازت بها أمة النبي – ﷺ – الخيرية، قال الله – تعالى -:﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، قال الإمام الغزالي: (وهذا يدلُّ على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ بين أنهم كانوا به خير أمة أخرجت للناس) [الإحياء].

وهي المهمة الأولى التى كلفت بها الأمة حيث يقول الله – عز وجل -: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ودعونا نتأمل هذا الأمر الإلهي للأمة، يقول الله – تعالى -:﴿وَلْتَكُنْ" أمر من الله للأمة، "مِنْكُمْ

أُمَّةٌ﴾، قيل: معناه كونوا كلكم أمة، وعليه قال بعض أهل العلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض عين على كل مسلم ومسلمة، وقيل: إن "من" هنا تبعيضية أي: البعض؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات، وهذا القول الثانى رجحه الإمام القرطبي وغيره، وذلك لأن الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر لا بد وأن يكون عالمًا بحقيقته وشرائطه وأحواله وضوابطه، وليس كل الناس كذلك، وشاهد ذلك قول الله – عز وجل -:﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، وليس كل الناس مكنوا، على أنه وإن كان من فروض الكفايات إلا أنه لا يعدم منه أحد، ولكن كلٌّ بحسبه، وقوله – تعالى -:﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، فمع أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من جملة الدعوة إلى الخير، وإنما خصه بالذكر لشرفه وفضله.

قال الإمام الغزالي:(فإن الأَمر بالمعروف والنّهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة وعمت الفترة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتسع الخرق وخربت البلاد وهلك العباد ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد) [إحياء علوم الدين]، وقال ابن الجوزي:(اعْلَمُوا أَنَّ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ أَصْلُ الدِّينِ، فَإِنَّهُ شُغُلُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ خَلَفَهُمْ فِيهِ خُلَفَاؤُهُمْ، وَلَوْلاهُ

شَاعَ الْجَهْلُ وبطل العلم) [التبصرة].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو طريقة الأنبياء والمرسلين، قال الله – تعالى – فى حق نبيه محمد – ﷺ -:﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ...﴾[الأعراف: ١٥٧]، قال ابن تيمية: (وَقَوْلُهُ – سُبْحَانَهُ - فِي صِفَةِ نَبِيِّنَا - ﷺ -:"يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ"، هُوَ بَيَانٌ لِكَمَالِ رِسَالَتِهِ؛ فَإِنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هُوَ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ عَلَى لِسَانِهِ بِكُلِّ مَعْرُوفٍ وَنَهَى عَنْ كُلِّ مُنْكَرٍ، وَأَحَلَّ كُلَّ طَيِّبٍ وَحَرَّمَ كُلَّ خَبِيثٍ) [مجموع الفتاوى].

وهو أيضًا طريقة أهل الإيمان والصلاح، قال – تعالى -:﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]، قال الإمام الغزالي:(فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فالذي هجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خارجٌ عن هؤُلاء المؤْمنين المنعوتين في هذه الآية) [الإحياء]، وقال – تعالى -: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ

وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤]، قال الإمام الغزالي:(فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) [الإحياء]، وقال – سبحانه -: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢]، وفى مقابل ذلك ذمّ الله – تعالى – التاركين لهذه الفريضة، وعدّ ذلك من صفات الكافرين والمنافقين، قال الله – عز وجل -:﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]، وقال – سبحانه -:﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

وقد حذرنا النبي – ﷺ – من ترك هذه الفريضة وتضييعها والاستهانة بها، فقال – ﷺ -:"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ" [الترمذي وأحمد]، وعن أَبي سعيد الخُدري - رضي الله عنه - عن النَّبيّ - ﷺ - قَالَ:"إيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ في الطُّرُقَاتِ!"، فقالوا: يَا رَسُول الله مَا لنا مِنْ مجالِسنا بُدٌّ، نتحدث فِيهَا، فَقَالَ رسولُ الله - ﷺ:"فَإذَا أَبَيْتُمْ إلاَّ المَجْلِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ"، قالوا: وما حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رسولَ الله؟، قَالَ:"غَضُّ البَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلامِ، وَالأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ، والنَّهيُ عن

الْمُنْكَرِ" [متفق عليه]، وعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ:"وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَتُقْتَلُنَّ، فَلْيَظْهَرَنَّ شِرَارُكُمْ عَلَى خِيَارِكُمْ، فَلَيَقْتُلُنَّهُمْ حَتَّى لَا يَبْقَى أَحَدٌ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، ثُمَّ تَدْعُونَ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - فَلَا يُجِيبُكُمْ" [مسند ابن الجعد]، وعَنِ الْمُسْتَظِلِّ بْنِ حُصَيْنٍ، قَالَ: قَالَ عَلِيٌّ:"يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَجِدُنَّ فِي أَمْرِ اللَّهِ، أَوْ لَيَسُومَنَّكُمْ أَقْوَامٌ يُعَذِّبُونَكُمْ وَيُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ" [ابن أبي شيبة]، وعن أبي الرُّقَادِ، قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ مَوْلَايَ وَأَنَا غُلَامٌ فَدُفِعْتُ إِلَى حُذَيْفَةَ وَهُوَ يَقُولُ: "إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - فَيَصِيرُ مُنَافِقًا، وَإِنِّي لَأَسْمَعُهَا مِنْ أَحَدِكُمْ فِي الْمَقْعَدِ الْوَاحِدِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَحَاضُّنَّ عَلَى الْخَيْرِ، أَوْ لَيُسْحِتَنَّكُمُ اللهُ جَمِيعًا بِعَذَابٍ، أَوْ لَيُؤَمِّرَنَّ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ، ثُمَّ يَدْعُو خِيَارُكُمْ، فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ" [أحمد]، وعَنْ قَيْسٍ، قَالَ: قَامَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَؤُونَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وَإِنَّا سَمِعْنَا رَسُولَ اللهِ - ﷺ - يَقُولُ:"إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ" [ابن ماجة وأحمد]، وعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ -، يَقُولُ:"مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، قَبْلَ أَنْ تَدْعُوا فَلَا يُسْتَجَابَ لَكُمْ" [ابن ماجة]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:"كَيْفَ بِكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِذَا طَغَى نِسَاؤُكُمْ، وَفَسَقَ فِتْيَانُكُمْ؟"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ؟، قَالَ:"نَعَمْ، وَأَشَدُّ

مِنْهُ، كَيْفَ بِكُمْ إِذَا تَرَكْتُمُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ؟"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ؟، قَالَ:"نَعَمْ، وَأَشَدُّ مِنْهُ، كَيْفَ بِكُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا، وَالْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا؟" [مسند أبي يعلى]، وعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْعُمَرِيَّ الزَّاهِدَ , قال:"إِنَّ مِنَ غَفْلَتِكَ عَنْ نَفْسِكَ إِعْرَاضَكَ عَنِ اللهِ، بِأَنْ تَرَى مَا يُسْخِطُهُ فَتُجَاوِزُهُ وَلَا تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا تَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ خَوْفًا مِمَّنْ لَا يَمْلِكُ لَكَ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا" [حلية الأولياء].

وفى المقابل فقد مدح النبي – ﷺ – المؤدين لهذه الفريضة العظيمة، عَنْ دُرَّةَ، قَالَتْ:قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَتْقَى النَّاسِ؟ قَالَ:"آمَرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَوْصَلُهُمْ لِلرَّحِمِ" [ابن أبي شيبة]، وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: "أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ، أَوْ أَمِيرٍ جَائِرٍ" [أبو داود]، ومعنى:"كَلِمةُ عَدلٍ"، أي: أمرٌ بمَعروفٍ أو نَهيٌ عن مُنكرٍ أيًّا كانَت صُورتُه قَولًا أو كتابةً أو فِعلًا، وعن علي – رضي الله عنه – قال:"أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، وعَنْ وَهْبِ بْنِ كَيْسَانَ قَالَ: كَتَبَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ إِلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ حِينَ بُوِيعَ:"سَلَامٌ عَلَيْكَ, فَإِنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، أَمَّا بَعْدُ, فَإِنَّ لِأَهْلِ طَاعَةِ اللَّهِ وَأَهْلِ الْخَيْرِ عَلَامَةً يُعْرَفُونَ بِهَا وَتُعْرَفُ فِيهِمْ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْعَمَلِ بِطَاعَةِ اللَّهِ, وَاعْلَمْ أَنَّمَا مَثَلُ الْإِمَامِ مَثَلُ السُّوقِ يَأْتِيهِ مَا زَكَّى فِيهِ فَإِنْ كَانَ بَرًّا جَاءَهُ أَهْلُ الْبِرِّ بِبِرِّهِمْ وَإِنْ كَانَ فَاجِرًا جَاءَهُ أَهْلُ الْفُجُورِ بِفُجُورِهِمْ" [الزهد لأبي السري]، وعَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي حَكِيمٍ, قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ -:"أَنَّ اللَّهَ

– تَعَالَى - لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ، وَلَكِنْ إِذَا أُظْهِرَتِ الْمَعَاصِي فَلَمْ يُنْكِرُوا فَقَدِ اسْتَحَقَّ الْقَوْمُ جَمِيعًا الْعُقُوبَةَ" [تنبيه الغافلين للسمرقندي]، وعن الْوَلِيدِ بْنِ شُجَاعِ بْنِ الْوَلِيدِ، قَالَ: قَالَ أَبِي: "كُنْتُ أَخْرُجُ مَعَ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، فَمَا يَكَادُ لِسَانُهُ يَفْتُرُ عَنِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ذَاهِبًا وَرَاجِعًا" [حلية الأولياء]، وقال علي - كرمّ الله وجهه -:"أعمال البرّ كلّها إلى جنب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كتفلة إلى جنب البحر" [قوت القلوب].

وقد ذكر لنا القرآن الكريم نموذجًا لقضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثرها، وذلك من خلال قصة (أصحاب السبت)، قال الله – عز وجل -:﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣ – ١٦٨]، فهؤلاء لمّا تجاوزوا حدود الله وتحايلوا على أوامره، وانقسموا إلى طوائف ثلاث:

طائفة معتدية عاصية مخالفة لأوامر الله وشرعه، وطائفة آمرت بالمعروف وناهية عن المنكر، وطائفة لم تعص ولم تنه، وهذه الأخيرة قالوا للآمرين الناهين قولهم:"لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا"، فأجابوهم بقولهم:"قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ"،أي:إنما قمنا بواجبنا بوعظهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر عذرًا إلى الله – تعالى -، فنكون قد أدّينا ما علينا، قال الحافظ ابن كثير:(أَيْ: نَفْعَلُ ذَلِكَ "مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ" أَيْ: فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ)، وقد روى ابن بطة بإسناده عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:"لَا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتِ الْيَهُودُ , فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللَّهِ بِأَدْنَى الْحِيَلِ" [إبطال الحيل]، قال الحافظ ابن كثير وقد أورد هذا الحديث فى تفسيره:(وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ)، ثم بين الله – عز وجل – مآل كل طائفة فقال – تعالى – عن الطائفة الأولى :"فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ"، وقال – سبحانه – عن الطائفة المعتدية:"وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ"، وأمّا الطائفة الثالثة فلم يأت ذكرٌ لمآلهم، قال الحافظ ابن كثير:(فَنَصَّ عَلَى نَجَاةِ النَّاهِينَ وَهَلَاكِ الظَّالِمِينَ، وَسَكَتَ عَنِ السَّاكِتِينَ؛ لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ مَدْحًا فَيُمْدَحُوا، وَلَا ارْتَكَبُوا عَظِيمًا فَيُذَمُّوا)، والراجح أنهم نجوا مع الطائفة الناهية، والشاهد أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان سببًا فى نجاتهم، قال ابن زيد:(وهذه أَشدُّ آية في ترك النهي عن المنكر).

وأيضًا فإن قوله – تعالى -:﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ * كانُوا لَا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]، نزل فى هؤلاء المعتدين، قال الإمام البغوي:(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ، يَعْنِي: أَهْلَ أَيْلَةَ لَمَّا اعْتَدَوْا فِي السَّبْتِ، وَقَالَ دَاوُدُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: اللَّهُمَّ الْعَنْهُمْ وَاجْعَلْهُمْ آيَةً فَمُسِخُوا قردة وخنازير، "وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ"، أَيْ: عَلَى لِسَانِ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، يَعْنِي كُفَّارَ أَصْحَابِ الْمَائِدَةِ، لَمَّا لَمْ يُؤْمِنُوا، قَالَ عِيسَى: اللَّهُمَّ الْعَنْهُمْ وَاجْعَلْهُمْ آيَةً فَمُسِخُوا خَنَازِيرَ، "ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ"، ﴿كانُوا لَا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ"، أَيْ: لَا يَنْهَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا، "لَبِئْسَ مَا كانُوا يَفْعَلُونَ﴾).

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:"إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ، فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ"، ثُمَّ قَالَ:﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ"، إِلَى قَوْلِهِ:"فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٨١]، ثُمَّ قَالَ:"كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا" [أبو داود]، قال الإمام القرطبي:(قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَالْإِجْمَاعُ مُنْعَقِدٌ عَلَى أَنَّ النَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَرْضٌ لِمَنْ أَطَاقَهُ وَأَمِنَ الضَّرَرَ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ خَافَ فَيُنْكِرُ

بِقَلْبِهِ وَيَهْجُرُ ذَا الْمُنْكَرِ وَلَا يُخَالِطُهُ، وَقَالَ حُذَّاقُ أَهْلِ الْعِلْمِ: وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ النَّاهِي أَنْ يَكُونَ سَلِيمًا عَنْ مَعْصِيَةٍ بَلْ يَنْهَى الْعُصَاةُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا)، وعن عَلِيٍّ, قَالَ:"الْجِهَادُ ثَلَاثَةٌ: فَجِهَادٌ بِيَدٍ , وَجِهَادٌ بِلِسَانٍ , وَجِهَادٌ بِقَلْبٍ, فَأَوَّلُ مَا يُغْلَبُ عَلَيْهِ مِنَ الْجِهَادِ يَدُكَ, ثُمَّ لِسَانُكَ, ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى الْقَلْبِ, فَإِذَا كَانَ الْقَلْبُ لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا, وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا؛ نُكِّسَ فَجُعِلَ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ" [البدع لابن وضاح].

وقد بيّن لنا النبي – ﷺ – أيضًا قيمة وأثر هذه الفريضة العظيمة على الفرد والمجتمع، فقال:"مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا" [البخاري]، ومعنى "القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ"، أي:المستقيم مع أوامر الله – تعالى -، ولا يتجاوز ما منع الله – تعالى – منه، والآمر بالمعروف الناهي عن المنكر، وقوله:"وَالوَاقِعِ فِيهَا"، التارك للمعروف المرتكب للمنكر، قال علي صبح: (وأما روعة التصوير الأدبي في بلاغة التعبير عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حين صور الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر بصورة إيجابية فعالة لا سلبية مدمرة في صورة بليغة رشيقة، عندما أراد من في أسفلها أن يخرقوا خرقا؛ ليشربوا بقاء على حياتهم، فيأمرهم من في أعلاها بالمعروف وينهونهم عن المنكر، لينجوا جميعًا) [التصوير النبوي للقيم].

وإذا كان الأمر كذلك فإنه يجب أن ننتبه إلى عدة أمور هامة فى قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لا تختلط الأمور:

الأمر الأول: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يستلزم العلم بحقيقة المعروف ليأمر به، والعلم بحقيقة المنكر لينهى عنه، فالمعروف: مع عرف من الشرع أنه معروف أو محبوب، أو هو ما أمر الله به ورسوله، والمنكر: ما نهى الله عنه ورسوله، وقيل: المعروف هو اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، والمنكر: اسم جامع لكل ما يبغضه الله ولا يرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، قال ابن دقيق العيد:(ولا يختص الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بأصحاب الولاية، بل ذلك ثابت لآحاد المسلمين، وإنما يأمر وينهى من كان عالماً بما يأمر به وينهى عنه، فإن كان من الأمور الظاهرة مثل: الصلاة والصوم والزنا وشرب الخمر ونحو ذلك، فكل المسلمين علماء بها، وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال وما يتعلق بالاجتهاد ولم يكن للعوام فيه مدخل فليس لهم إنكاره بل ذلك للعلماء، والعلماء إنما ينكرون ما أجمع عليه أما المختلف فيه فلا إنكار فيه) [شرح الأربعين النووية].

الأمر الثانى: أن يكون على قدر الجهد والاستطاعة، قال – تعالى -:﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ...﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال رسول الله – ﷺ -: ﴿مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ" [مسلم]، فلا يتكلف الإنسان فى

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فوق طاقته واستطاعته، أو ما يؤدى إلى هلاكه، أو ما يترتب عليه ضرر أعظم، شريطة أن يتيقن الهلاك أو الضرر، أو يغلب على ظنه، فإنه لا يسقط بالظن والتوهم، قال النووي:(وَلَا يَسْقُطُ عَنِ الْمُكَلَّفِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ لِكَوْنِهِ لَا يُفِيدُ فِي ظَنِّهِ بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ فِعْلُهُ "فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ") [المنهاج]، وعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -:"لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ" قَالُوا: وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ؟ قَالَ:"يَتَعَرَّضُ مِنَ البَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ" [الترمذي وابن ماجة]، قال أبو بكر الخلال:(أَخْبَرَنَا حَرْبُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، قَالَ: سَمِعْتُ إِسْحَاقَ بْنَ رَاهَوَيْهِ، حَدَّثَهُمْ أَنَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ سُئِلَ: الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَاجِبٌ، عَلَى الْمُسْلِمِ؟، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنْ خَشِيَ؟ قَالَ:"هُوَ وَاجِبٌ عَلَيْهِ حَتَّى يَخَافَ، فَإِذَا خَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ فَلَا يَفْعَلُ"، وقال أيضًا: أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ الْمَرُّوذِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، يَقُولُ: قُلْتُ لِشُعَيْبِ بْنِ حَرْبٍ: فِي الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَقَالَ:"لَوْلَا السَّيْفُ، وَالسَّوْطُ، وَأَشْبَاهُ هَذَا لَأَمَرْنَا وَنَهَيْنَا، فَإِنْ قَوِيتَ فَأْمُرْ وَانْهِ") [الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]، وروى ابن وضاح عن خالد بن أبي عمران، قال: قال رسول الله – ﷺ -:"وَجَبَ عَلَيْكُمُ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ, مَا لَمْ تَخَافُوا أَنْ يُؤْتَى إِلَيْكُمْ فَوْقَ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ, فَإِذَا خِفْتُمْ ذَلِكَ فَقَدْ حَلَّ لَكُمُ الصَّمْتُ" [البدع]، وقال شهاب الدين أبو العباس:(وَلَا يَسْقُطُ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ إلَّا إنْ خَافَ مِنْهُمَا عَلَى نَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ بُضْعِهِ أَوْ عُضْوِهِ أَوْ خَافَ مَفْسَدَةً عَلَى غَيْرِهِ

أَكْثَرَ مِنْ مَفْسَدَةِ الْمُنْكَرِ الْوَاقِعِ أَوْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ أَنَّ الْمُرْتَكِبَ يَزِيدُ فِيمَا هُوَ فِيهِ عِنَادًا) [الزواجر عن اقتراف الكبائر]، وقال ابن العربي:(والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل في الدين، وعمدة من عمد المسلمين، وخلافة رب العالمين، والمقصود الأكبر من فائدة بعث النبيين، وهو فرض على جميع الناس مثنى وفرادى بشرط القدرة والأمن) [فيض القدير].

الأمر الثالث: أن يكون بلطف ولين وحكمة، قال – تعالى -:"ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" [النحل: ١٢٥]، وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -:"مَنْ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ فَلْيَكُنْ أَمْرُهُ بِمَعْرُوفٍ" [شعب الإيمان]، وقال أبو بكر الخلال:(أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ السِّمْسَارُ، قَالَ: حَدَّثَنِي مُهَنَّا، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَنِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، كَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يُؤْمَرَ؟ قَالَ: "يَأْمُرُ بِالرِّفْقِ وَالْخُضُوعِ، ثُمَّ قَالَ: إِنْ أَسْمَعُوهُ مَا يَكْرَهُ لَا يَغْضَبُ فَيَكُونُ يُرِيدُ يَنْتَصِرُ لِنَفْسِهِ" [الأمر بالمعروف]، وقَالَ سفيان الثوري:(لَا يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ إِلَّا مَنْ كَانَ فِيهِ خِصَالٌ ثَلَاثٌ: رَفِيقٌ بِمَا يَأْمُرُ، رَفِيقٌ بِمَا يَنْهَى، عَدْلٌ بِمَا يَأْمُرُ، عَدْلٌ بِمَا يَنْهَى، عَالِمٌ بِمَا يَأْمُرُ، عَالِمٌ بِمَا يَنْهَى) [جامع العلوم والحكم].

الأمر الرابع: أن يراعى الستر، فإنه كما قال الفضيل:"المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويُعيِّر"، وقال زين الدين الحنبلي:(وكان السلف

يكرهون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على هذا الوجه ويحبون أن يكون سراً فيما بين الآمر والمأمور فإن هذا من علامات النصح؛ فإن الناصح ليس له غرض في إشاعة عيوب من ينصح له وإنما غرضه إزالة المفسدة التي وقع فيها، وأما إشاعة وإظهار العيوب فهو مما حرمه الله ورسوله قال الله – تعالى -:﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]، والأحاديث في فضل السر كثيرةٌ جدًّا، وقال بعض العلماء لمن يأمر بالمعروف: واجتهد أن تستر العصاة فإن ظهور عوراتهم وهن في الإسلام أحقُّ شيء بالستر: العورة) [الفرق بين النصيحة والتعيير].

الأمر الخامس: أنه لا يشترط فى الآمر والناهى أن يكون سليمًا من المعصية، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -:"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ" [مسلم]، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا نَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ حَتَّى نَعْمَلَ بِهِ، وَلَا نَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى نَجْتَنِبَهُ كُلَّهُ؟، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:"بَلْ مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَإِنْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهِ كُلِّهِ، وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَإِنْ لَمْ تَجْتَنِبُوهُ كُلَّهُ" [الطبراني فى الأوسط والصغير، والبيهقي فى الشعب]، قال ابن رجب:(فلا بد للإنسان من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوعظ والتذكير، ولو لم يعظ إلا معصوم من الزلل لم يعظ الناس بعد رسول الله - ﷺ – أحد؛ لأنه لا عصمة لأحد بعده، وقال أيضًا: وقيل للحسن: إن فلانا لا يعظ ويقول: أخاف أن أقول مالا أفعل، فقال الحسن: وأينا يفعل ما يقول

ود الشيطان أنه ظفر بهذا فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر، وقال مالك عن ربيعة: قال سعيد بن جبير: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر، قال مالك: وصدق ومن ذا الذي ليس فيه شيء، وقال أيضًا: خطب عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - يومًا فقال في موعظته: إني لأقول هذه المقالة وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما أعلم عندي فأستغفر الله وأتوب إليه، وكتب إلى بعض نوابه على بعض الأمصار كتابًا يعظه فيه وقال في آخره: وإني لأعظك بهذا وإني لكثير الإسراف على نفسي غير محكم لكثير من أمري، ولو أن المرء لا يعظ أخاه حتى يحكم نفسه، إذًا لتواكل الخير، وإذًا لرفع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإذا لاستحلت المحارم، وقل الواعظون والساعون لله بالنصيحة في الأرض، والشيطان وأعوانه يودون أن لا يأمر أحد بمعروف ولا ينهى عن منكر، وإذا أمرهم أحد أو نهاهم عابوه بما فيه وبما ليس فيه) [لطائف المعارف].

ولمّا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة يجب القيام بها على قدر الجهد والاستطاعة، فإن الأمر لا يخلو من أذى قد يصيبه، فنبه لقمان ابنه إلى ذلك بقوله:"وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ" [لقمان: ١٧]، أي: تحمل ما يصيبك من الأذى مقابل ذلك، قال الحافظ ابن كثير:(”وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ"،عَلِمَ أَنَّ الْآمِرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَا بُدَّ أَنْ يَنَالَهُ مِنَ النَّاسِ أَذًى، فَأَمَرَهُ بِالصَّبْرِ) وقال ابن مفلح:(قَالَ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ: الصَّبْرُ عَلَى أَذَى الْخَلْقِ عِنْدَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ

عَنْ الْمُنْكَرِ إنْ لَمْ يُسْتَعْمَلْ لَزِمَ أَحَدُ أَمْرَيْنِ إمَّا تَعْطِيلُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَإِمَّا حُصُولُ فِتْنَةٍ وَمَفْسَدَةٍ أَعْظَمَ مِنْ مَفْسَدَةِ تَرْكِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ أَوْ مِثْلِهَا أَوْ قَرِيبٍ مِنْهَا وَكِلَاهُمَا مَعْصِيَةٌ وَفَسَادٌ قَالَ – تَعَالَى -:﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، فَمَنْ أَمَرَ وَلَمْ يَصْبِرْ أَوْ صَبَرَ وَلَمْ يَأْمُرْ أَوْ لَمْ يَأْمُرْ وَلَمْ يَصْبِرْ حَصَلَ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ مَفْسَدَةٌ وَإِنَّمَا الصَّلَاحُ فِي أَنْ يَأْمُرَ وَيَصْبِرَ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عُبَادَةَ قَالَ:"بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي يُسْرِنَا وَعُسْرِنَا وَمَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالْحَقِّ حَيْثُ مَا كُنَّا لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ" [الآداب الشرعية لابن مفلح]، "إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ"، أي: من الأمور العظيمة التى يعزم عليها، ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم، قال الإمام البغوي:("وَاصْبِرْ عَلى مَا أَصابَكَ"، يَعْنِي مِنَ الْأَذَى، "إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ"، يُرِيدُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالصَّبْرَ عَلَى الْأَذَى فِيهِمَا مِنَ الْأُمُورِ الْوَاجِبَةِ الَّتِي أمر الله بها وهي مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يُعْزَمُ عَلَيْهَا لِوُجُوبِهَا)، وقال زين الدين المناوي:(إن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر يحتاجان إلى تحمل مكاره، وصبر على أذى في سبيلهما، فمن قام بذلك فلا يسخط، ولا يمل، ولا يغضب، بل يواصل ذلك بصدر رحب، وأخلاق حميدة، ولسان طلق، وقلب مفعم بالإيمان، والصدق، والإخلاص، ويلين للناس جانبه؛ حتى يتمكن من إزالة المنكر بطرق مفيدة، وسبل سهلة، ويكون أسلوبه ذا فنون وأنواع؛ ليقنع صاحب المنكر، ويستولي على

قلبه ولُبِّه، ويستعمل له الأدلة الوافية كل بحسبه، وينزل الناس منازلهم) [الإتحافات السنية].

قال الحافظ ابن رجب:(اعلم أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر تارةً يحمل عليه رجاء ثواب الله، وتارة خوف العقاب في تركه، وتارة الغضب لله على انتهاك محارمه، وتارة النصيحة للمؤمنين، والرحمة لهم، ورجاء إنقاذهم مما أوقعوا أنفسهم فيه من التعرض لعقوبة الله وغضبه في الدنيا والآخرة، وتارة يحمل عليه إجلال الله، وإعظامُه، ومحبتُه، وأنه أهل أن يُطاع، ويذكر، فلا يُنسى، ويشكر، فلا يكفر، وأنه يفتدى من انتهاك محارمه بالنفوس والأموال) [جامع العلوم].

الوصية السادسة: التواضع ولين الجانب

قال الله – تعالى -:﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]، قال الشيخ ابن عاشور:(انْتَقَلَ لُقْمَانُ بِابْنِهِ إِلَى الْآدَابِ فِي مُعَامَلَةِ النَّاسِ فَنَهَاهُ عَنِ احْتِقَارِ النَّاسَ وَعَنِ التَّفَخُّرِ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَمْرَهُ بِإِظْهَارِ مُسَاوَاتِهِ مَعَ النَّاسِ وَعَدِّ نَفْسِهِ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ)، والصّعر فى الأصل داء يصيب الإبل إذا أصيبت به تلوى رقبتها فلا تستطيع أن تقيمها، وهو كناية عن الكبر؛ لأن المتكبر يلوى رقبته على الناس تكبرًا واستعلاءً حتى يبدو خده ظاهرًا للناس، وشبه من يلوى رقبته بلا مرض بالإبل المريضة تنبيهًا على أن الكبر داءٌ عضال، فشبه المرض القلبي بالمرض الحسي لتقريب المعنى، قال الإمام الطبري:(وتأويل الكلام: ولا تعرض بوجهك عمن كلمته تكبرا واستحقارا لمن تكلمه، وأصل (الصعر) داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رءوسها حتى تلفت أعناقها عن رءوسها، فيشبه به الرجل المتكبر على الناس)، قال ابن عاشور:(فَكَأَنَّهُ صِيغَ لَهُ صِيغَةَ تَكَلُّفٍ بِمَعْنَى تَكَلُّفِ إِظْهَارِ الصَّعَرِ وَهُوَ تَمْثِيلٌ لِلِاحْتِقَارِ لِأَنَّ مُصَاعَرَةَ الْخَدِّ هَيْئَةُ الْمُحْتَقِرِ الْمُسْتَخِفِّ فِي غَالِبِ الْأَحْوَالِ، قَالَ عَمْرُو بْنُ حُنَيٍّ التَّغْلِبِيُّ يُخَاطِبُ بَعْضَ مُلُوكِهِمْ: وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ ... أَقَمْنَا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَتَقَوَّمَ

وَالْمَعْنَى: لَا تَحْتَقِرِ النَّاسَ فَالنَّهْيُ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُمُ احْتِقَارًا لَهُمْ لَا عَنْ خُصُوصِ مُصَاعَرَةِ الْخَدِّ فَيَشْمَلُ الِاحْتِقَارَ بِالْقَوْلِ وَالشَّتْمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ

فَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ قَوْلِهِ - تَعَالَى -:﴿فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ﴾ [الْإِسْرَاء: ٢٣] إِلَّا أَنَّ هَذَا تَمْثِيلٌ كَنَائِيٌّ وَالْآخَرُ كِنَايَةٌ لَا تَمْثِيلَ فِيهَا)، وقال الإمام البغوي:(يُقَالُ صَعَّرَ وَجْهَهُ وَصَاعَرَ إِذَا مَالَ وَأَعْرَضَ تَكَبُّرًا وَرَجُلٌ أَصْعَرُ أَيْ مَائِلُ الْعُنُقِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَقُولُ لَا تَتَكَبَّرْ فَتُحَقِّرَ النَّاسَ وَتُعْرِضَ عَنْهُمْ بِوَجْهِكَ إِذَا كَلَّمُوكَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ الرَّجُلُ يَكُونُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ إِحْنَةً فَتَلْقَاهُ فَيُعْرِضُ عَنْكَ بِوَجْهِهِ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: هُوَ الَّذِي إِذَا سُلِّمَ عَلَيْهِ لَوَى عُنُقَهُ تَكَبُّرًا، وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وقتادة: لا تحتقرن الفقراء ليكن الفقر وَالْغِنِيُّ عِنْدَكَ سَوَاءً)، وقال الإمام القرطبي:(قَالَ الهروي:"لا تُصَاعِر" – قراءة فيها -، أَيْ: لَا تُعْرِضْ عَنْهُمْ تَكَبُّرًا عَلَيْهِمْ، يُقَالُ: أَصَابَ الْبَعِيرَ صَعَرٌ وَصَيَدٌ إِذْ أَصَابَهُ دَاءٌ يَلْوِي مِنْهُ عُنُقَهُ، ثُمَّ يُقَالُ لِلْمُتَكَبِّرِ: فِيهِ صَعَرٌ وَصَيَدٌ، فَمَعْنَى:"لَا تُصَعِّرْ" أَيْ لَا تُلْزِمْ خَدَّكَ الصَّعَرَ، وقال أيضًا: مَعْنَى الْآيَةِ: وَلَا تُمِلْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ كِبْرًا عَلَيْهِمْ وَإِعْجَابًا وَاحْتِقَارًا لَهُمْ. وَهَذَا تَأْوِيلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٌ، وَقِيلَ: هُوَ أَنْ تَلْوِيَ شِدْقَكَ إِذَا ذُكِرَ الرَّجُلُ عِنْدَكَ كَأَنَّكَ تَحْتَقِرُهُ، فَالْمَعْنَى: أَقْبِلْ عَلَيْهِمْ مُتَوَاضِعًا مُؤْنِسًا مُسْتَأْنِسًا، وَإِذَا حَدَّثَكَ أَصْغَرُهُمْ فَأَصْغِ إِلَيْهِ حَتَّى يُكْمِلَ حَدِيثَهُ. وَكَذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - يَفْعَلُ).

فالمتكبر يرى لنفسه ميزة على الآخرين فى مال أو ولد أو قوة أو منصب أو حسب أو غيره، كما قال الله – تعالى - عن صاحب الجنتين:﴿وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصاحِبِهِ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالًا وَأَعَزُّ نَفَراً * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً * وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً﴾ [الكهف: ٣٤ – ٣٦]،

والمتكبر بين حالين: إمّا أن يدعى أن ما هو فيه من عند نفسه فيكون قد وصل إلى مرحلة البغي والطغيان، كما قال قارون:" إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي"، فقال الله – عز وجل -:﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]، ثم قال الله – تعالى -:﴿فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١]، وإمّا أن يقر أن ماهو فيه أو ما تميز به هو موهوب له من الله – تعالى -، فكيف يتكبر بشيء لا دخل له فيه؟، ثم نقول له: إذا كنت ترى فى نفسك ميزة عن الآخرين فانظر إلى ما تميز به الآخرون عنك، فإنك حتمًا ولا بد ستجد فى غيرك شيئًا تميز به عنك؛ لأن الله – تعالى – وزّع المواهب بين الخلق جميعًا، ولم يحاب منهم أحدًا على أحد، فمجموع مواهب كل إنسان يساوى مجموع مواهب الآخر، وبذلك يعتدل الميزان، وقد نبهنا الله – تعالى – إلى ذلك بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، وقال – تعالى -:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١١، ١٣]، وفى قوله – تعالى -:" لِلنَّاسِ" إشارة عظيمة كأن الله – تعالى – يقول لمن يصعّر خدّه ويتكبر على الناس:لا تدع الناس إلى العصيان والتمرد على أقدار الله

بتكبرك عليهم، فإنك قد تصادف إنسانًا ضعيف الإيمان فحين يراك على هذه الهيئة يتسخط ويعترض على أقدار الله حينما يراك متكبرًا متعاليًا وهو دونك، فكأن الله يريد أن يمنع رؤية الناس له على هذه الحال لما لها من أثر سيءٍ على نفوسهم [تفسير الشعراوي].

وقد توعّد الله المتكبرين بالخزي والعذاب الأليم، قال – تعالى -: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩]، وقال – سبحانه -:﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]، وقال – جل وعلا -: ﴿كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ" [غافر: ٣٥]، وقال رسول الله – ﷺ -:"لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ"، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ:"إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ" [مسلم]، وقال – ﷺ -:"لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرِيَاءَ" [مسلم]، وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ:" يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورَةِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، يُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ مِنْ جَهَنَّمَ يُسَمَّى: بُولَسَ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، وَيُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ، طِينَةَ الْخَبَالِ" [الأدب المفرد]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ:"احْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ - وَقَالَ سُفْيَانُ أَيْضًا: اخْتَصَمَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ - قَالَتِ النَّارُ: يَلِجُنِي الْجَبَّارُونَ، وَيَلِجُنِي الْمُتَكَبِّرُونَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: يَلِجُنِي الضُّعَفَاءُ، وَيَلِجُنِي الْفُقَرَاءُ.

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، ثُمَّ قَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا" [الأدب المفرد].

وقوله – تعالى -:" وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ"، المرح هو الاختيال والتبختر، قال البغوي:("وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً"، خيلاء تكبرًا، "إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ"، فِي مَشْيِهِ "فَخُورٍ"، عَلَى الناس)، وقال القرطبي:(قَوْلُهُ – تَعَالَى -:"وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً"، أَيْ مُتَبَخْتِرًا مُتَكَبِّرًا، مَصْدَرٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، وَهُوَ النَّشَاطُ وَالْمَشْيُ فَرَحًا فِي غَيْرِ شُغْلٍ وَفِي غَيْرِ حَاجَةٍ، وَأَهْلُ هَذَا الْخُلُقِ مُلَازِمُونَ لِلْفَخْرِ وَالْخُيَلَاءِ، فَالْمَرِحُ مُخْتَالٌ فِي مِشْيَتِهِ)، وقال ابن عاشور:(تَمْثِيلٌ كِنَائِيٌّ عَنِ النَّهْيِ عَنِ التَّكَبُّرِ وَالتَّفَاخُرُ لَا عَنْ خُصُوصِ الْمَشْيِ فِي حَالِ الْمَرَحِ فَيَشْمَلُ الْفَخْرَ عَلَيْهِمْ بِالْكَلَامِ وَغَيْرِهِ، وَالْمَرَحُ: فَرْطُ النَّشَاطِ مِنْ فَرَحٍ وَازْدِهَاءٍ، وَيَظْهَرُ ذَلِكَ فِي الْمَشْيِ تَبَخْتُرًا وَاخْتِيَالًا فَلِذَلِكَ يُسَمَّى ذَلِكَ الْمَشْيُ مَرَحًا كَمَا فِي الْآيَةِ، فَانْتِصَابُهُ عَلَى الصِّفَةِ لِمَفْعُولٍ مُطْلَقٍ، أَيْ مَشْيًا مَرَحًا، وَمَوْقِعُ قَوْلِهِ "فِي الْأَرْضِ" بَعْدَ "لَا تَمْشِ" مَعَ أَنَّ الْمَشْيَ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْأَرْضِ هُوَ الْإِيمَاءُ إِلَى أَنَّ الْمَشْيَ فِي مَكَانٍ يَمْشِي فِيهِ النَّاسُ كُلُّهُمْ قَوِيُّهُمْ وَضَعِيفُهُمْ، فَفِي ذَلِكَ مَوْعِظَةٌ لِلْمَاشِي مَرَحًا أَنَّهُ مُسَاوٍ لِسَائِرِ النَّاسِ).

فالله – عز وجل – لا يمنعك من المشي فى الأرض، ولكن يمنعك أن تمشى مشية المتعالى على الناس المختال بنفسه، فالله – تعالى – أمرنا

بقوله:﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، وقال:﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، فالمشي فى الأرض مطلوب مأمور به، ولكن بهيئة خاصة أن تمشى مشيًا سويًّا معتدلًا، فحينما رأى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – رجلًا يسير متماوتًا نهره، وقال: ما هذا التماوت يا هذا وقد وهبك الله العافية، دعها لشيخوختك، ورأى رجلًا يمشى مشية الشطار – يعنى قطاع الطريق -، فنهاه عن القفز أو الجري والإسراع فى المشي، ولذلك قال لقمان لابنه فى الوصية التى بعدها:"وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ"، وقد وصف الله – تعالى – عباد الرحمن بقوله:"وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً" [الفرقان: ٦٣]، وقال – جل وعلا -: ﴿وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً * كُلُّ ذلِكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾ [الإسراء: ٣٧، ٣٨]، وقال – سبحانه وتعالى – عن أهل النار: ﴿ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ * ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٥، ٧٦]، قال الإمام البغوي:("ذلِكُمْ" الْعَذَابُ الَّذِي نَزَلَ بِكُمْ، "بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ" تَبْطَرُونَ وَتَأْشَرُونَ، "فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ" تَفْرَحُونَ وَتَخْتَالُونَ)، وروى الطبراني، أَنَّ أَبَا دُجَانَةَ يَوْمَ أُحُدٍ أَعْلَمَ بِعِصَابَةٍ حَمْرَاءَ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُخْتَالٌ فِي

مِشْيَتِهِ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ، فَقَالَ:"إِنَّهَا مِشْيَةٌ يُبْغِضُهَا اللهُ إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ" [المعجم الكبير]، وقال رسول الله – ﷺ -:" مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ، أَوِ اخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ، لَقِيَ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ" [الأدب المفرد]، وعَنِ الْهَيْثَمِ بْنِ مَالِكٍ الطَّائِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ، قَالَ: إِنَّ لِلشَّيْطَانِ مَصَالِيَا وَفُخُوخًا، وَإِنَّ مَصَالِيَ الشَّيْطَانِ وَفُخُوخَهُ: الْبَطَرُ بِأَنْعُمِ اللَّهِ، وَالْفَخْرُ بِعَطَاءِ اللَّهِ، وَالْكِبْرِيَاءُ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ، وَاتِّبَاعُ الْهَوَى فِي غَيْرِ ذَاتِ اللَّهِ" [الأدب المفرد]،

قوله – تعالى -:﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، المختال: هو الذى وجد لنفسه ميزة عند الناس، والفخور: الذى وجد له ميزة فى نفسه، الله – عز وجل – لا يحب هذا ولا ذاك؛ لأنه يريد أن يحكم الناس جميعًا بمبدأ المساواة ليعلم الناس أنه – تعالى – ربّ الجميع، وهو – سبحانه – المتكبر وحده فى الكون، وأن الكبرياء لله وحده، قال – تعالى -:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال رسول الله – ﷺ – : قَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -:"الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ" [أبو داود]، وفى رواية عند الحاكم:"الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَازَعَنِي رِدَائِي قَصَمْتُهُ"، وعنه – ﷺ – قال:"وَثَلَاثَةٌ لَا يُسْأَلُ عَنْهُمْ: رَجُلٌ نَازَعَ اللَّهَ رِدَاءَهُ، فَإِنَّ رِدَاءَهُ الْكِبْرِيَاءُ، وَإِزَارَهُ عِزَّهُ، وَرَجُلٌ شَكَّ فِي أَمْرِ اللَّهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ" [أحمد والبخاري فى الأدب].

الوصية السابعة: "وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ"

قال الله – تعالى -: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩]، "وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ" يعنى: التوسط والاعتدال، "وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ"، أي:اخفضه وحسبك من الأداء ما بلّغ الآذان، وجمع بين المشي والصوت؛ لأن الإنسان له مطلوبات وأغراض فى الحياة، فإمّا أن يذهب إليها بالمشي، وإمّا أن يستدعيها بالصوت، فأمر أن يضبط حركة حياته بالقصد والاعتدال فى مشيه وخفض صوته على قدر الحاجة، والاعتدال فى الصوت أمر ينبغى أن يتحلى به المؤمن حتى فى العبادة، قال الله – تعالى -:﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]، أَيْ: بَيْنَ الجهر والخفاء، قيل أنها نزلت فى الصلاة وقيل فى الدعاء وقيل فى القراءة، ولمّا أذن أبو محذورة لعمر حين قدم مكة وبالغ فى رفع صوته فى الأذان قال له:"وَيْحَهُ مَا أَشَدَّ صَوْتَهُ أَمَا يَخَافُ أَنْ يَنْشَقَّ مُرَيْطَاؤُهُ قَالَ: فَأَتَاهُ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ فَقَالَ: وَيْحَكَ مَا أَشَدَّ صَوْتَكَ أَمَا تَخَافُ أَنْ يَنْشَقَّ مُرَيْطَاؤُكَ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا شَدَدْتُ صَوْتِي لِقُدُومِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ" [البيهقي وعبد الرزاق]، وَالْمُرَيْطَاءُ: مَا بَيْنَ السُّرَّةِ إِلَى الْعَانَةِ.

قال الإمام البغوي:("وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ"، أَيْ: لِيَكُنْ مَشْيُكَ قَصْدًا لَا تَخَيُّلًا وَلَا إِسْرَاعًا، وَقَالَ عَطَاءٌ: امْشِ بِالْوَقَارِ وَالسَّكِينَةِ، كَقَوْلِهِ:﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً﴾ [الْفُرْقَانِ: ٦٣]، ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾، وَقَالَ مُقَاتِلٌ:

اخْفِضْ صَوْتَكَ، "إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ"، أَقْبَحَ الْأَصْوَاتِ، "لَصَوْتُ الْحَمِيرِ"، أَوَّلُهُ زَفِيرٌ وَآخِرُهُ شَهِيقٌ، وهما صوتا أَهْلِ النَّارِ).

وقال الإمام القرطبي:(قَوْلُهُ - تَعَالَى -:﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ لَمَّا نَهَاهُ عَنِ الْخُلُقِ الذَّمِيمِ رَسَمَ لَهُ الْخُلُقَ الْكَرِيمَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعْمِلَهُ فَقَالَ:"وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ" أَيْ تَوَسَّطْ فِيهِ، وَالْقَصْدُ: مَا بَيْنَ الْإِسْرَاعِ وَالْبُطْءِ، أَيْ لَا تَدِبَّ دَبِيبَ الْمُتَمَاوِتِينَ وَلَا تَثِبْ وَثْبَ الشُّطَّارِ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -:"سُرْعَةُ الْمَشْيِ تُذْهِبُ بَهَاءَ الْمُؤْمِنِ" [الحلية]، فَأَمَّا مَا رُوِيَ عَنْهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُ كَانَ إِذَا مَشَى أَسْرَعَ، وَقَوْلُ عَائِشَةَ فِي عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -:"كَانَ إِذَا مَشَى أَسْرَعَ"؛ فَإِنَّمَا أَرَادَتِ السُّرْعَةَ الْمُرْتَفِعَةَ عَنْ دَبِيبِ الْمُتَمَاوِتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، ... ثم قال: قوله – تعالى -:"وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ"، أَيِ انْقُصْ مِنْهُ، أَيْ لَا تَتَكَلَّفْ رَفْعَ الصَّوْتِ وَخُذْ مِنْهُ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْجَهْرَ بِأَكْثَرَ مِنَ الْحَاجَةِ تَكَلُّفٌ يُؤْذِي، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ كُلِّهِ التَّوَاضُعُ، ثم قال: قوله – تعالى -:"إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ"، أَيْ: أَقْبَحَهَا وَأَوْحَشَهَا، وَمِنْهُ أَتَانَا بِوَجْهٍ مُنْكَرٍ، وَالْحِمَارُ مَثَلٌ فِي الذَّمِّ الْبَلِيغِ وَالشَّتِيمَةِ، وَكَذَلِكَ نُهَاقُهُ، وَمِنِ استفحاشهم لِذِكْرِهِ مُجَرَّدًا أَنَّهُمْ يَكْنُونَ عَنْهُ وَيَرْغَبُونَ عَنِ التَّصْرِيحِ فَيَقُولُونَ: الطَّوِيلُ الْأُذُنَيْنِ، كَمَا يُكْنَى عَنِ الْأَشْيَاءِ الْمُسْتَقْذَرَةِ، وَقَدْ عُدَّ فِي مَسَاوِئِ الْآدَابِ أَنْ يَجْرِيَ ذِكْرُ الْحِمَارِ فِي مَجْلِسِ قَوْمٍ مِنْ أُولِي الْمُرُوءَةِ، وَمِنَ الْعَرَبِ مَنْ لَا يَرْكَبُ الْحِمَارَ اسْتِنْكَافًا وَإِنْ بَلَغَتْ مِنْهُ الرَّجْلَةُ – أي:المشي راجلًا -، وَكَانَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - يَرْكَبُهُ تَوَاضُعًا وَتَذَلُّلًا لِلَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -).

وقال الحافظ ابن كثير:(وَقَوْلُهُ:"وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ"، أَيِ: امْشِ مَشْيًا مُقْتَصِدًا لَيْسَ بِالْبَطِيءِ الْمُتَثَبِّطِ، وَلَا بِالسَّرِيعِ الْمُفْرِطِ، بَلْ عَدْلًا وَسَطًا بَيْنَ بَيْنَ، وَقَوْلُهُ:"وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ" أَيْ:لَا تُبَالِغْ فِي الْكَلَامِ، وَلَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ فِيمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ – تَعَالَى -:"إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ"، قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: إِنَّ أَقْبَحَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ، أَيْ: غَايَةُ مَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ أَنَّهُ يُشَبه بِالْحَمِيرِ فِي عُلُوِّهِ وَرَفْعِهِ، وَمَعَ هَذَا هُوَ بَغِيضٌ إِلَى اللَّهِ – تَعَالَى -، وَهَذَا التَّشْبِيهُ فِي هَذَا بِالْحَمِيرِ يَقْتَضِي تَحْرِيمَهُ وَذَمَّهُ غَايَةَ الذَّمِّ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: "لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوْءِ، الْعَائِدُ فِي هِبَتِهِ كَالْكَلْبِ يَقِيءُ ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ").

وقال ابن عاشور:(بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ لَهُ آدَابَ حُسْنِ الْمُعَامَلَةِ مَعَ النَّاسِ قَفَّاهَا بِحُسْنِ الْآدَابِ فِي حَالَتِهِ الْخَاصَّةِ، وَتِلْكَ حَالَتَا الْمَشْيِ وَالتَّكَلُّمِ، وَهَمَا أَظْهَرُ مَا يَلُوحُ عَلَى الْمَرْءِ مِنْ آدَابِهِ، وَالْقَصْدُ: الْوَسَطُ الْعَدْلُ بَيْنَ طَرَفَيْنِ، فَالْقَصْدُ فِي الْمَشْيِ هُوَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ طَرَفِ التَّبَخْتُرِ وَطَرَفِ الدَّبِيبِ وَيُقَالُ: قَصَدَ فِي مَشْيِهِ. فَمَعْنَى اقْصِدْ فِي مَشْيِكَ: ارْتَكِبِ الْقَصْدَ، وَالْغَضُّ: نَقْصُ قُوَّةِ اسْتِعْمَالِ الشَّيْءِ، يُقَالُ: غَضَّ بَصَرَهُ، إِذَا خَفَضَ نَظَرَهُ فَلَمْ يُحَدِّقْ. وَتَقَدَّمَ قَوْلُهُ – تَعَالَى -:" قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ" فِي سُورَةِ النُّورِ [٣٠]، فَغَضُّ الصَّوْتِ: جَعْلُهُ دُونَ الْجَهْرِ، وَجِيءَ بِـ "مِنْ" الدَّالَّةِ عَلَى التَّبْعِيضِ لِإِفَادَةِ أَنَّهُ يَغُضُّ بَعْضَهُ، أَيْ بَعْضَ جَهْرِهِ، أَيْ يَنْقُصُ مِنْ جُهُورَتِهِ وَلَكِنَّهُ لَا يَبْلُغُ بِهِ إِلَى التَّخَافُتِ وَالسِّرَارِ، وَجُمْلَةُ "إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ" تَعْلِيلٌ عَلَّلَ بِهِ الْأَمْرَ بِالْغَضِّ مِنْ صَوْتِهِ بِاعْتِبَارِهَا مُتَضَمِّنَةً تَشْبِيهًا بَلِيغًا،

أَيْ لِأَنَّ صَوْتَ الْحَمِيرِ أَنْكَرُ الْأَصْوَاتِ، وَرَفْعُ الصَّوْتِ فِي الْكَلَامِ يُشْبِهُ نَهِيقَ الْحَمِيرِ فَلَهُ حَظٌّ مِنَ النَّكَارَةِ).

إلى هنا أحبتى الكرام نكون قد وصلنا إلى نهاية حديثنا عن هذه الوصايا العظيمة النافعة، والتى سجلها لنا القرآن الكريم لتبقى نموذجًا يحتذى به فى التربية والنصح والتوجيه والإرشاد، فطوبى لمن حفظها ووعاها وعمل بها وجعلها منهج حياة يسير عليه، والله أسأل أن ينفعنى والمسلمين بها، وأرجو أن أكون وفقت فى شرحها وبيانها، هذا وما كان من توفيق فمن الله – عز وجل – وما كان من خطأ أو تقصير فمن نفسى، والله أسأل أن يجعله زادًا لحسن المسير إليه ويمن القدوم عليه إنه بكل جميل كفيل وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على البشير النذير وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

فهرس

مقدمة ٥
تمهيد ٧
مع سورة لقمان ١٠
بعض وصايا لقمان وحكمه ١٢
نعمة الحكمة ١٦
من أقوال السلف فى الحكمة ١٧
مفهوم الحكمة ١٨
الحكمة في القرآن الكريم والسنة المطهرة ١٩
درجات الحكمة ثلاث: ٢٢
الأحبة الكرام ٢٥
الشكر فى مقابل النعمة ٣٣
الفرق بين الحمد والشكر ٤٠
العلاقة بين الصبر والشكر ٤١
أيهما أفضل: الغني الشاكر أم الفقير الصابر؟ ٤٢

الشكر لله وأثره للعبد ٤٧
أسلوب الوعظ وأثره فى النفس ٥١
مقومات الوعظ المؤثر ٥٤
الوصية الأولى:"لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ"..... ٥٧
الوصية الثانية: "وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً" ٧٠
الوصية الثالثة: إحاطة العلم والقدرة الإلهية ٨٦
الوصية الرابعة: "أَقِمِ الصَّلاةَ"..... ٩٥
الوصية الخامسة: "وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ" ١٠٥
الوصية السادسة: التواضع ولين الجانب ١٢٢
الوصية السابعة: "وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ" ١٢٩